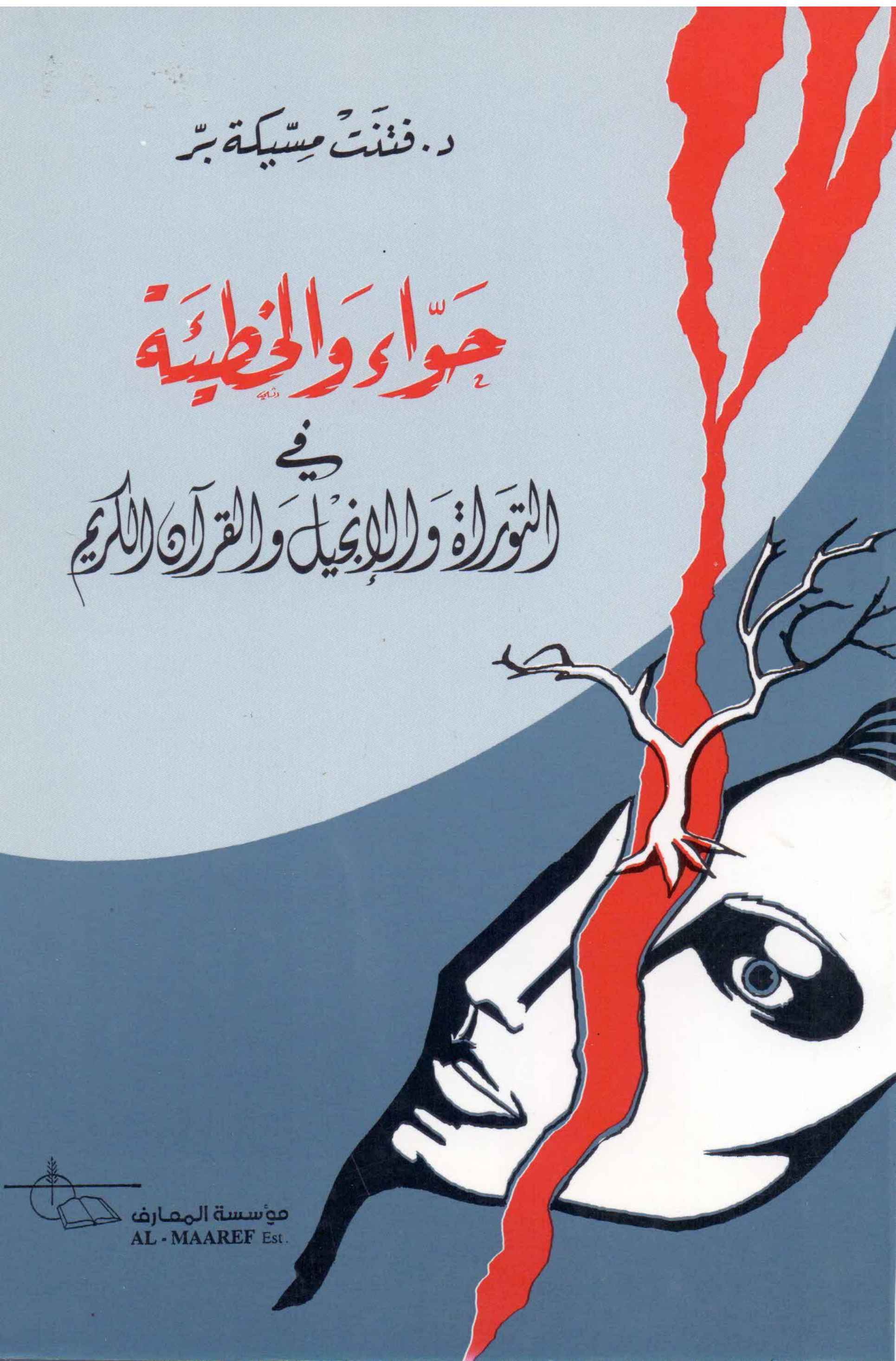


د. فتنت مِسّيكة برّ
حوّاء والخطيئة
في
التوراة والإنجيل والقرآن الكريم
مؤسسة المعارف
AL - MAAREF Est.

هـذا الكـتـــاب

لقد أثار موضوع الخطيئة اهتمام الدكتورة فتنت مسيكه لما لمسته من تأثيرها في حياة المجتمعات وفي أوضاع المـــرأة على مر التاريخ , فعمدت الى كتابة بحث حول هذا الموضوع لترى كيف تطورت حال المرأة في ظله منذ فجر التاريخ حتـى اليـــوم مركزة اهتمامها على ما جاء في نصوص كل من الكتب السماوية الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن الكريم .

هذا وان الكلام على الخطيئة في النطاق العلمي محفوف بالصعوبات ومخاطر الزلل لما بين الشؤون الروحية والبحوث العلمية من هوة فاصلة لم تستطع الأبحاث العلمية بعد أن تردمها أو تخفف من عمقها .

ولكن لا ريب عندي في أن الدكتورة فتنت مسيكه كانت في اثناء بحثها واعية هذه الأمور , عاملة على مراعاتها , هادفة الى الوقوف على الحقيقة العلمية وساعية الى جلائها وتقديمها للناس في اطار بحث علمي أقل ما يوصف به أنه طريف , مهم , منير للتفكير , غايته أن يقدم الى الناس اضافه معرفته جديدة حول حواء والخطيئة في كل من التوراة والانجيل والقرآن الكريم .

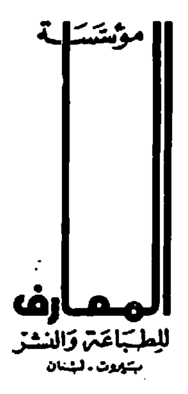
الدكتور أحمد أبو حاقة

يطلب من مكتبة المعارف ص. ب 1761 /11 بيروت ــ لبنان

حواء والخطيئة

في

التوراة والإنجيل والقرآن الكريم



يطلب من مكتبة المعارف ص. ب 1761 /11 بيروت ـ لبنان

د. فتنت مِسيكة برّ

حوّاء والخطيئة
في
التوراة والإنجيل والقرآن الكريم

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
1416هـ - 1996م
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

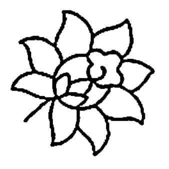
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾. سورة النساء، ٤ـ الآية ١.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾. سورة طه: ٢٠ـ الآيات ١١٥ ـ ١٢٤.

الإهداء

إلى روح شقيقتي المغفور لها الحاجة عواطف مِسَّيْكَة بزري... التي استوحيتُ من أحاديثها فكرة هذا الموضوع آملة أن تجد كل امرأة بين طيات صفحاته ما تتطلع وتصبو إليه من تحقيق «إنسانيتها» المنشودة في ظل العدالة والحرية والمساواة المعهودة منذ قرن ونصف.

فتنت



مقدمة

بقلم الدكتور أحمد أبو حاقة

منذ بضعة أيام، دفعتْ إليّ زميلتي الكريمة الدكتورة فتنت مسيكة بمخطوطة بحث عنوانه: «حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم» طالبة مني أن أقرأ هذا البحث، وأن أقدّم له بمقدّمة مناسبة.

ولا أُخفي أن العنوان أغراني وأثار فيّ فضول الإطلاع. وفي اليوم التالي قرأت البحث قراءة واحدة متواصلة، ثم أغمضت عينيّ واستسلمت للتفكير. وفيما أنا بين حالم ومستيقظ، تراءت لي من بعيد صورة جدّنا آدم، وقد خرج من جنّة عَدْن، طريداً شريداً معذّباً، تغمره الكآبة، ويجلّله الحزن والإحباط من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. [وكأن الدمع في عينيه يترقرق أحمر قانياً، وعلى شفتيه المضطربتين سؤال ينضح بالحيرة واليأس والإنكسار].

لقد آلمه كثيراً هذا المنقلب العسير، وأدمى قلبه أن يرى باب النعيم قد أُوصد من دونه.

ولكنْ أين حواء؟ أين هي الزهرة الجميلة التي بقيت له وحدها ذكرى فردوس مفقود؟

أين هي حتى يبثّها ما في قلبه، وتبثّه ما في قلبها، ويكفكف كلّ منهما دمع الآخر؟

وراح آدم يسعى حافي القدمين، يدوس أشواكاً كالإبر وتجرّح أخمصيه نواتىء الحجر، حتى قطع وعوراً وآجاماً، فالتقى من بعدها حواء. ما [أطيب اللقيا! وكان عناقٌ، وكان بكاءٌ]، وكان عتابٌ، وكان حوار:

- حواء، يا مخرجتي من جنات النعيم، آهِ من هذا العذاب!!! آه يا ما أقسى الشقاء!!!

- آدمُ أَعرِضْ عن هذا. ما كنت أبغي لنا عذاباً، ولا أردتُ لنا الشقاء. كل ما كنت أودّه، أن أنفخ طيننا الجامد حريّة وحركة وتوقاً إلى التجدد وإلى نور المعرفة.

- لكننا يا حواء كنا نعيش في هناء وننعم بالاكتفاء، ولا ينغص عيشنا منغص.

- نِعمَ ذاك الاكتفاء، وإن يكن في الاكتفاء جمودا. إن السعادة كل السعادة في التوق إلى اكتفاء يغيّب الإنسان في سبيل راحة، اكتفاء يتجاوب نبض الوجود.

- أي وجود هذا، والحياة معه عذاب في عذاب، والراحة واحة لا تدرك، نموت سعياً إليها ولا نبلغ منها شيئاً.

- يا آدم، إن قيمة الوجود تتجلى في التوق الدائم إلى الأفضل، ما أعظم لذة العمل التي تصل بيننا وبين الكون

الأفضل. إنما الحياة حرية، وها أنت اليوم حرّ. فاعمل بمقتضى حريتك.

ـ كلمات! وكلمات!، براقة في الخارج، خاوية من الداخل، بالله عليك لا تحسريني بالوهم، ولا تغريني بمعسول الكلام.

ـ ما كانت حواء لك وهماً. إنما الوهم أن تتحسر على فردوسك المفقود. فابق هنا يا آدم، يدي بيدك، لنبتني جنة فوق هذي الأرض، علّنا نحقق خلوداً...

تألّقت في ناظري آدم مفاتن حواء ومعاني سحرها. وكلما واصلها كانت تتجدد فيه الحياة، ويروق له فيها بهاء الأمومة الخصيبة.

على هذا فتحت عيني، وخرجت من غيبوبة الحلم، فتذكرت ما قرأت وما رأيت، وتساءلت؛ أين هو الحلم من الحقيقة؟

فها هو التاريخ يحمل في ثناياه جحافل من البشر المعذبين في الأرض، يزحفون لاهثين، وقد اعتلى الأقوياء منهم مناكب الضعفاء، كلهم يبتغون الأفضل، ولا يعيشون إلا في الأسوأ تموت أجيال وتولد أجيال.

والأرض قائمة مدى الدهر، وشريعة الغاب أيضاً قائمة. الغني يستعبد الفقير، والقوي يفتك بالضعيف

والظالم لا يرحم المظلوم. وتتعالى أصوات من هنا وهناك. تطالب بالعدالة والحرية والرحمة. وتقوم شرائع وتموت شرائع، وتندلع حروب وتنطفىء حروب، ويسمي الغزاة المعتدون قهر الشعوب نصراً، فيقتلون الرجال ويَسْبون النساء ويسترقّون الأطفال، ويفترس المتوحشون كل وديع مسالم، فيُفْني الألوفُ الألوفَ، والملايينُ الملايين وتسود شريعة القهر والعنف والتغلّب، فيكون نصيب المرأة من كل ذلك ـ وهي الكائن الضعيف اللطيف ـ مزيداً من القهر والظلم والاسترقاق، وتئنّ الأرض متضوّرة في مجاعتها الروحية. فيستجيب لأنينها نخبة من الأصفياء الأنقياء، يظهرون واحداً تلو الآخر، على تباعد في فترات الزمن، أمثالِ نوح وهود وصالح والخليل، وموسى وهرون وذي الكفل وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ثم سواهم من الأنبياء المصلحين؛ يحبون أن يصلحوا الناس ويقاوموا الشرّ، ويبشروا بالخير والعدل والمساواة والمحبة، ويرفعوا عن كاهل المظلوم ظلامته، ويعيدوا إلى صاحب الحق حقّه، ويبعثوا في الناس أمل العودة إلى الجنة التي خرج منها آدم وحواء عقاباً لهما على المعصية التي ارتكباها ابتغاء اللذة المحرمة، وينصفوا المستضعفين ومن بينهم المرأة، وهي الكائن اللطيف الذي أمعن الرجال قبل الإسلام في التجنيّ عليه، وتحميله وزر الخطيئة، ووزر الخروج من الجنة، وأوزار البؤس والشقاء

والعذاب، وراحوا آنذاك يغرسون في عقول الأجيال أن حواء هي التي أغوت آدم، وأغوته بمعصية ربه، وزينت له الخطيئة وحملته على ارتكاب الإثم. فلما فعل، غضب الله عليه وعلى حواء، وعلى إبليس الذي وسوس لهما، فطردهم الله جميعاً من جنته، وأهبطهم إلى الأرض.

من المحطات التاريخية الكبرى التي غيَّرت وجه التاريخ وتركت آثارها العميقة الفاعلة في مواكب الأجيال من البشر، محطة التوراة اليهودية، والإنجيل المسيحي والقرآن الإسلامي، ممثلة في موسى وعيسى ومحمد أنبياء الله تعالى ورسله المصطفَيْن. فلقد كان لكل من هذه الرسالات السماوية الثلاث تعاليمها، ونظمها، وتشريعها للحياة، وكان لها من الخطيئة التي ذكرت أول ما ذكرت في التوراة على أنها موروثة، مواصف وتفاسير، ومن الحياة البشرية شرائع وأنظمة ومفاهيم وتعاليم. ولا ريب في أن المرأة كانت في صميم ولب تلك الشرائع والأنظمة والمفاهيم والتعاليم، كما كان الرجل وشؤون الحياة جميعاً.

ولقد أثارت الخطيئة اهتمام الدكتورة فتنت مسيكة، لما لمسته من تأثيرها في حياة المجتمعات وفي أوضاع المرأة على مرّ التاريخ، فعمدت إلى كتابة بحث حول هذه الموضوع لترى كيف تطورت حال المرأة في ظلّه منذ فجر التاريخ حتى اليوم، مركّزة اهتمامها على ما جاء في

نصوص كل من الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، غير غافلة عما كان قبلها وما كان بعدها من أمور تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد وغير غافلة أيضاً عن الأمور الآتية:

١ ـ إن الكلام على الخطيئة في النطاق العلمي محفوف بالصعوبات ومخاطر الزلل لما بين الشؤون الروحية والبحوث العلمية من هوة فاصلة لم تستطع الأبحاث العلمية بعدُ أن تردمها أو تخفف من عمقها. وأصل هذه الهوة يعود إلى تباين بين مرتكزات البحث العلمي ومرتكزات العقائد الروحية فالأولى تعتمد على التجربة العقلية والمنطقية والثانية تعتمد على اليقين القلبي والروحي.

٢ ـ يمكن أن الحديث عن الخطيئة بات موضوعاً تاريخياً واجتماعياً، لينطلق من البدايات، ويرافق التطورات بناء على التدقيق والتحقيق الموضوعين وذلك يقضي توثيقاً تاريخياً وعلمياً دقيقاً وصارماً يتجلى في العودة الدائمة إلى الأصول، ولا يقيّد بما دون ذلك لأن الحقيقة العلمية لا تحتمل الزّيف.

٣ ـ إن الموضوعية العلمية تقتضي الابتعاد عن كل ميل إلى أبعد مدى، وعلى قدم المساواة بين العقائد المختلفة، والتيارات المتعددة.

٤ ـ إن بحثاً في الخطيئة بين التوراة والإنجيل والقرآن الكريم يقتضي الإنطلاق من النصوص انطلاقاً علمياً حذراً،

ويأخذ في الاعتبار العلاقة القائمة بين الرسالات السماوية الثلاث في واقع النص وفي واقع التاريخ، كما يقتضي مثل هذا البحث أن تؤخذ في الاعتبار العلاقات القائمة بين الطقوس الوثنية والديانات السماوية الثلاث نصّاً وتطوراً تاريخياً.

٥ - لا يمكن الفصل بين النص وبين الإنسان الذي يوجّه إليه هذا النص في البداية، وبين النص وبين ما يجري عليه من تطورات تاريخية في الفهم والتطبيق.

٦ - ينبغي الإلتفات إلى المحطات التاريخية المهمة، وما تحمله من تطورات فكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية بصورة عامة، والتركيز على تأثير هذه المحطات في مسيرة البشر ومعتقداتهم ومذاهبهم وأنواع سلوكهم.

فلا ريب عندي فى أن الدكتورة فتنت مسيكة كانت في أثناء بحثها واعية هذه الأمور، عاملة على مراعاتها هادفة إلى الوقوف على الحقيقة العلمية، وساعية إلى جلائها وتقديمها للناس في إطار بحث علمي أقلّ ما يوصف به أنه طريف، مهمّ، منير للتفكير، غايته أن يقدم إلى الناس إضافة معرفية جديدة حول حواء والخطيئة في كل من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

بيروت في ١٩٩٣/١٢/٢٩

الدكتور أحمد أبو حاقة

مقدمة البحث

إن اهتمامي بموضوع المرأة يرجع إلى زمن ليس بقريب. ففي مطلع الستينات وبالتحديد ما بين ١٩٦١ - ١٩٦٥. قدّمت سلسلة من الأحاديث تتعلق بشوؤن المرأة، وكانت تذاع اسبوعياً في محطة «البي. بي. سي.» اللندنية.

وفي السبعينات، تابعت دراساتي العليا في جامعة وايْن Wayne State University في مدينة «ديترويت» (ولاية ميتشيغين الأمريكية). حيث عكفت على دارسة موضوع: **«واقع المرأة الحضاري في التوراة والإنجيل والقرآن»** لنيل شهادة الـ P. H. D وكنت أقرن الدراسة النظرية بأخرى ميدانية من خلال اللقاآت والندوات المتعددة التي كانت تعقد إما في رحاب الجامعة المذكورة، وإما خارجها في «نادي زوجات الطلاب الأجانب» أو غيرها من النوادي الثقافية الأمركية حيث كان الحوار والنقاش غالباً ما يجريان حول أوضاع المرأة عامة في مختلف البلدان والأقاليم.

ولكن ظروفاً عائلية اضطرتني إلى العودة إلى لبنان قبل استكمال هذه الدراسة المنشودة.

وصادف أن موضوع المرأة في تلك الفترة، كان قد استحوذ على اهتمام معظم دول العالم، مما دعا الجمعية العامة للأمم المتحدة، في جلستها المنعقدة في ١٨/١٢/ ١٩٧٢ إلى إعلان عام ١٩٧٥ «السنة الدولية للمرأة العالمية»، فكان هذا العام عاماً مميزاً لها إذ أُعيد النظر في تقويم مكانة المرأة على مستوى المجتمع الدولي وفي تقرير فعاليّة دورها البنَّاء، في سبيل إقامة مجتمع إنساني عادل يقوم على المساواة والتنمية والسلام. وكان من ثمار هذا الإعلان أن عُقد المؤتمر العالمي في «مكسيكو ستي» من ١٩ تموز إلى ٢ آب من عام ١٩٧٥، الذي اعتمد خطة عمل عالمية تتبناها جميع الدول المنتظمة في هيئة الأمم المتحدة لكي تضمن مزيداً من مشاركة المرأة في بناء المجتمع الإنساني واندماجها في مختلف مرافق الحياة. وقد حدد مؤتمر «مكسيكو» السنوات العشر الواقعة بين ١٩٧٦، و ١٩٨٥ «عقد الأمم المتحدة للمرأة العالمية»، يقيناً منه أن هذه الفترة قد تكون آونة زمنية كافية لتحقيق أهداف العقد القائمة على: «المساواة والتنمية والسلم»، وكافية لأن تنفَّذ فيها خطة العمل العالمية الموضوعة لها في المجالين النظري والتطبيقي. كما أن الجمعية العامة للأمم المتحدة اعتمدت قراراً آخر يقضي بعقد «مؤتمرين عالميين»، أولهما في منتصف العقد في مدينة كوبنهاجن/ الدنمارك، وذلك لاستعراض التقدم المحرز في النصف الأول من العقد، ثم

بغية تعديل برامج العمل المتعلقة بالنصف الثاني منه ثانياً على ضوء الاقتراحات والبحوث الجديدة المقدمة إلى المؤتمر من قبل الفِرق العالمية المتخصصة بهذا الشأن. كما أنه تقرر أن يعقد مؤتمر عالمي ثانٍ في نهاية العقد في نيروبي/كينيا لدراسة ما تحقق وأُنجز من خطة العمل العالمية الموضوعة في مكسيكوستي.

ولقد كان لي شرف المساهمة في حضور بعضِ هذه المؤتمرات التي كانت تعقد محلياً وإقليمياً ودولياً لتنشيط خطة العمل العالمية الموضوعة، مما قوّى رغبتي واهتمامي للتعمق بموضوع المرأة وقد غدا موضوعاً عالمياً يسعى في أهدافه القريبة والبعيدة إلى القضاء على جميع أشكال التميز الممارس ضد المرأة قانوناً وتشريعاً، عُرفاً وعادات، تقاليد وأنماط حياة مختلفة.

وهنا قد يتساءل الناس: لِمَ اثيرت «قضية المرأة» على المستوى العالمي لا سيما وأنّ كثيراً من نساء العالم، وفي بعض الدول المتقدمة، قد وصلن إلى أعلى المراتب الوظيفية والمراكز الرسمية وغير الرسمية. فمنهن الملكات المتوجّات، والرئيسات المنتخبات والنائبات المشرّعات، والوزيرات المنفذات، فضلاً عن عدد لا يستهان به من المحاميات والقاضيات والطبيبات والأستاذات والمعلمات في الجامعات والمعاهد حتى أنه لم تبق وظيفة من الوظائف

إلا وزاحمت النساءُ عليها الرجالَ، ونافَسْنَهم في كل مجال من مجالات الحياة! بل أكثر من ذلك لقد دفع طموح بعضهن إلى أن يرِدْن الفضاء ويغطِسْن في أعماق البحار، فإلى مَ إذن ترمي قضية المرأة العالمية؟ ولِمَ أثيرتْ على بساط البحث في العالم وضمن أروقة الأمم المتحدة بالذات؟!؟!

الحقيقة أن هذا التفوق النسائي في مختلف الميادين، وتألق أسماء بعضهن في عالميْ السياسة والاجتماع لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من المجموعة النسائية العالمية التي ما زالت - في كثير من أرجاء الكرة الأرضية - ترزح تحت قيود الظلم والاستبداد والجهل، وتعاني ألواناً من الذل والاضطهاد والتمييز مما قد يصعب علينا تصوره ونحن في العقد الأخير من القرن العشرين! بل أكثر من هذا لقد انقضى «عقد المرأة العالمي» وانتهى، ولم تستطع الخطة العالمية التي وضعها «مؤتمر مكسيكو» أن تحقق أهدافها مما دعا أمين عام المؤتمر إلى أن يصرح قائلاً:

«إنه على الرغم من التقدم المحرز، وازدياد مشاركة المرأة في المجتمع العالمي، لم تتحقق غايات «العقد» ومقاصده إلاّ جزئياً....». ثم يتابع قائلاً:

«إن من أهم إنجازات العقد اعتماده: «وثيقة القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة» الصادرة عن هيئة

الأمم المتحدة في منتصف العقد في ١٩/١٢/١٩٧٩»[1] ويتابع قوله:

«إن التحدي المطروح الآن، أمام المجتمع الدولي هو ضمان تحول انجازات العقد إلى لَبِنات قوية للتنمية وتشجيع المساواة والسلم... ومواجهة العقبات التي ستظهر خلال الأعوام المقبلة بجهود عالمية وإقليمية ووطنية منسّقة حتى تكون بحلول عام/ ٢٠٠٠/ **ضمانات أوجه الأهلية قد اتحيت لكل النساء لا بوصفها جانباً من التنمية فحسب بل كذلك بوصفها واحداً من حقوق الإنسان الأساسية**. وفوق كل شيء يجب أن تكون القوانين التي تضمن المساواة للنساء في كل ميادين الحياة، قيد التنفيذ التام الشامل، من أجل تأمين إطار اجتماعي واقتصادي منصف حقاً يمكن في داخله أن تحدث تنمية حقيقية»[2].

فعدم الاعتراف بأهلية المرأة إذن، والحيلولة دون

---

(١) تقرير اللجنة المعنية بحالة المرأة رقم A/conf/116/p.e/19 فقرة: ١٣ . راجع نص الإتفاقية في كتابنا: «حقوق المرأة بين الشريعة الإسلامية والشرعة العالمية» لحقوق الإنسان ص: ٥٩ ـ ٧٩.

(٢) تقرير اللجنة المعنية بحالة المرأة.
لاستعراض منجزات «عقد المرأة العالمية» وتقييمها. فقرة: ٢٧.

مزاولة حقوقها الإنسانية والطبيعية كافة اسوة بالرجل في كثير من البلدان والأقاليم، هو السر الدفين الذي دفع المنظمات الوطنية والإقليمية والدولية إلى تبنّي «قضية المرأة العالمية» والذود عنها.

وهنا لا بد من التساؤل:

- كيف رسخ هذا الاعتقاد - عدم أهلية المرأة - في أذهان الناس منذ قديم الزمان؟

بل كيف نشأت هذه الفكرة، وكيف تطورت، وكيف انتقلت عبر الأجيال من الآباء إلى الأبناء حتى حملت أكبر منظمة عالمية - عنيت بها منظمة الأمم المتحدة، - على أن تسعى جاهدة في تبنيّ «قضية المرأة»، وهي تأمل أن لا يحلّ عام /٢٠٠٠/ حتى تكون ضمانات الاعتراف بأهلية المرأة قد أتيحت لكل نساء العالم بلا استثناء؟!؟!

ولتوضيح هذا الموقف، اضطرّرنا للعودة إلى تاريخ بعض الحضارات القديمة لنستقرىء فيها وضع المرأة ومكانتها في الهيئة الاجتماعية على اختلاف مظاهرها وفي مختلف عهودها التاريخية.

وقد تكشَّف لنا البحث عن أن مركز المرأة كان يتأرجح في أوضاع متناقضة، ومواقف متباينة عند الشعوب القديمة، بين أن تكون منبوذة محتقرة، وبائسة ذليلة مضطهدة مغلوبةً

على أمرها يتحكم في حظها من الحياة أب أو أخ أو زوج من جهة، وبين أن تحتفظ بمكانة مرموقة نوعاً ما، حتى بوأتها بعض الحضارات في فترة محدودة من الفترات الزمنية، منزلة الملائكة، وتارة أخرى منزلة الآلهة[1]، وطوراً ثالثاً توجتها ملكة تتصرف بشوؤن الأمة! بيد أن هذه المنزلة الرفيعة التي وصلت إليها المرأة، لم تكن لتحسّن من وضعها القانوني بشكل عام في جميع الطبقات، وعلى ممر الأزمان! لأن هذا الواقع على تحسنه نوعاً ما، كان يعكس واقع صورة إفرادية للنذر القليل من النساء المحظوظات، ومن الارستقراطيات الفاتنات الغانيات. وغالباً ما كانت هذه الصورة، صورة وهمية نسجتها مخيلة

---

(١) مثلاً عبد المصريون القدماء «ايزيس» بوصفها الأم والمبدأ الأنثوي الفعّال. وانتشرت عبادتها بعد ذلك في الممالك اليونانية والرومانية.
وكانت زهرة «اللوتس» المقدسة رمزاً لهذا الجوهر الذي تمثل في شخصية «أيزس» التي غدت الرمز المقدس الذي يثير انطباعات وإيحاآت ارتبطت بتعاقب الفصول والحركة الدورية للأفلاك، وبالخصب والنماء...
راجع: عاطف جودت نصر: الرمز الشعري عند الصوفية» ص : ١٢٦ وفي عرب الجاهلية، جعلوا في وثنيتهم عدداً من أوثانهم بنات الله وهن أناث:
كاللات العزّى ومناة الثالثة الكبرى.

الشعراء والفنانين من الرجال الذين نحتوا لها صنماً بأيديهم فعبدوه، ولكنهم بالمقابل، استعبدوا «الجنس» الذي ينتمي إليه «الصنم» فأذلّوه وعذّبوه واحتقروه! ومن هنا، ابتدأت خيوط «قضية المرأة» تحاك إذ اعتبرها الرجل لعبة بين يديه، يتصرف بمصيرها على هواه، وكيفما يحلو له: إن شاء أحبها فعبدها وملّكها، وإن شاء أبغضَها فاستعبدها وأذّلها!!

هكذا كان وضع المرأة في ظل الحضارات الإنسانية القديمة: من هندية وصينية، إلى فرعونية قديمة، إلى جاهلية الأعراب، ومن رومانية إلى يونانية اثينية واسبرطية، وحتى في الشرائع السماوية السابقة للإسلام، فقد وجد بين رجالات اليهودية والنصرانية، من اعتبر المرأة رجساً من عمل الشيطان، ومن آمن بأنها خلقت من جنس غير جنس آدم!!

لذا رأيت أن أُقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول.

١ ـ يتناول الفصل الأول منها وضع المرأة في الحضارات القديمة:

كالهندية والصينية والفارسية والبوذية، واليونانية والرومانية والفرعونية القديمة، وفي العربية الجاهلية حتى ظهور الإسلام.

٢ ـ ويتناول الفصل الثاني منها وضع المرأة في

الشريعتين السماويتين اليهودية والمسيحية. ثم فيما آلت إليه حال المرأة في أوروبا في العصر الوسيط.

٣ ـ أما الفصل الثالث فإنه يتناول وضع المرأة من حيث التصور الإسلامي بالنسبة إلى مسألتين مهمتين عانت منهما المرأة الأمرَّين. هما:

أ ـ مسألة: «حواء والخطيئة».

ب ـ مسألة: «ماهيّة حواء وجنسها بالنسبة إلى جنس آدم».



الفصل الأول

وضع المرأة في الحضارات القديمة:

١ ـ الهندية.

٢ ـ الفارسية.

٣ ـ الصينية.

٤ ـ في حضارة بلاد ما بين النهرين.

٥ ـ في الحضارة المصرية القديمة.

٦ ـ في الحضارة اليونانية.

٧ ـ في الحضارة الرومانية.

٨ ـ في جاهلية الأعراب.



أولاً: وضع المرأة في الحضارة الهندية:

إن من أبرز مواقف المجتمع الهندي تجاه المرأة، أنه كان ينكر عليها إنسانيتها ويتغاضى بالتالي عن الإعتراف بأهليتها وبحقوقها الإنسانية وقد أمعن باحتقارها إلى درجة أنه كان «يعتبرها لعنة ووباءً فتّاكاً، ويراها أفظع من السم، وأشد خطراً من الأفاعي»[1]. لذلك عاملها معاملة الأَمَة، فكانت مُلْكاً للأب تُباع للزوج وتدفن حيّة عند موته، لذا كانت عملية Sati أي حرق المرأة لنفسها مع جثة زوجها، هي أكثر الأعمال تقىً وورعاً بالنسبة إلى المرأة الهندية. أمّا إذا ما بقيت على قيد الحياة فإنها تباع مع ما يباع من أمتعة الزوج الذي فقد الحياة»[2].

وقد دامت هذه العادة إلى القرن السابع عشر، وبطلت بعد ذلك على كره من أصحاب الشعائر الدينية، ولم تكن قيمة المرأة الاجتماعية والقانونية أفضل من قيمتها الإنسانية

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، طبعة ثانية، مطبعة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦١، الجزء الثالث، ص ٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ٣/ ٧٧.

في المجتمع الهندي. فقد نصّت الشريعة الهندية البرهمية في المادتين ١٧٤ و ١٤٨ من قوانين «مانو»[١] على أن المرأة تظل تحت سيطرة الرجل، ولا يحق لها في أية مرحلة من مراحل حياتها أن تقضي أمراً وفق مشيئتها أو رغبتها الخاصة حتى ولو كان هذا الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها. فهي في طفولتها تتبع والدها، وفي شبابها تتبع زوجها، وإذا مات هذا الزوج، تنتقل الوصاية إلى أبنائها الذكور. وإن لم يكن لها أبناء، انتقلت الوصاية إلى أعمامها، أو إلى أحد سائر الأقرباء، وفي حالة عدم وجودهم، تنتقل الولاية إلى حاكم البلدة[٢]. هذا فضلاً عن أن المشرّع «مانو» Manu اعتبر الرجل نصف إله، كما اعتبر ولادة الفتاة لعنة ونذير شر[٣]. أمّا وأنها وُلدت، فعليها أن تتدرب لتصبح زوجة مثالية «كسيتا»[٤] تنسى نفسها،

---

(١) قوانين (مانو) هو كتاب الشريعة الهندية، وهو كتاب مقدّس لدى الهنود، يؤمنون أن مؤلفه هو إله منبثق عن الإله الخالق: براهما.

(٢) نوال السعداوي: الأنثى هي الأصل، ص ١٢٤.

Ney Bensadon: Les droits de la femme des origines à nos jours. pp. 24,25.

(٣) Margaret Comrak: the Hindou Woman pp. 4,5 New york Teachers, college. Columbia, University 1953.

(٤) «سيتا» هي زوجة راما التي ثبتت على وفائها له على الرغم من غيابه مدة طويلة ثم طردها بعد عودته!!!

وتمكث رهينة رغبات الأب والإخوة قبل الزواج، ورهينة رغبات الزوج بعد الزواج.

وتخلص الآنسة «كومراك» في بحثها عن مركز المرأة الهندوسية إلى القول: «إن الخضوع وعدم تكامل الشخصية اللذين يميّزان المرأة الهندية، له اتصال وثيق بنظام العائلة والمجتمع حيث تعامل المرأة كتابع للجماعة، لا كفرد مستقل»[1].

ثانياً: مركز المرأة في الحضارة الفارسية:

لم تختلف معاملة المرأة الفارسية عن زميلتها في الهند. إذ أن الزرادشتية في الواقع كانت أشد عداء للمرأة، إذ تعتبرها مساعدة «لأهريمان». . . . أي «الشيطان»، وتمثل الشر المجسم. يقول «زاهنير» في كتابه: «فجر الزرادشتية وشفقها» «إن كتب البهلوي صامتة عن أصل المرأة. ولقد تمثل الخالدون في كل كتب البهلوي بشخصية الذكور، ولم يستثنِ ذلك إلاّ في حالة «آرماتي» Armaiti أي العقل المستنير، والتي تمثلت بالأرض الأم»[2].

ويعود «زاهنير» ليستشهد بالكاتب السرياني المسيحي

---

(١) المرجع السابق ص : ١١٩ ـ ٢٠٠.

(٢) R. C. Zahner: the dawn and the twilight of. Zarastérianism . p.232 NewYork. g.p. putnam's son's, 1961

(٣) زهنير: المرجع السابق، ص ٢٣٢.

«تيودور باركوناي» Theodor Barkonai الذي يصف المرأة وصفاً غامضاً وينعتها بأنها تعمل إلى جانب الشيطان. وقد أطلق علماء فارس عليها اسم «العاهر» ويعتقدون أن المرأة خذلت الإله «اهرمزد» Ohrmazd، وانضمت إلى عدوّه Ahriman أي الشيطان ويلخص «زاهنير» أقواله في كون الديانة الفارسية القديمة عاملت المرأة كبطلة رئيسية من بطلات الشر وأداة لإفساد الرجال. ويتابع «زاهنير» قائلاً: إن الديانة الفارسية تعتبر الرجل أرقى مخلوقات الله، وقد كُوّن حتى يلعب الدور في تدمير «اهريمان» الشيطان. وإن المرأة كانت تعتبر آلة لإنجاب الأطفال. ولذلك وجدوها ضروريّة لهذا الغرض فقط، وهي ليست شراً بالنسبة إلى الرجل فحسب، بل إنّها أيضاً تسبب الألم للإله القادر القوي الحكيم: «اهرمزد» الذي يتألم من عدم تمكنه من الإستغناء عنها إذ يقول: «لقد خلقتُك يا من تُقارنين بجنس العواهر فقط: لقد خُلِقْتِ بفمٍ يلتصق بِرِدْفَيْكِ، والجماع عندك أحلى مذاقاً من ألذ طعام يدخل فمك. ومع هذا فأنت مساعدة لي، لأنك أنت التي تنجبين الأطفال، ولكنك تؤلمينني! أنا «اهرمزد»! لو وجدت وعاء آخر استطيع أن أصنع منه الرجال لما خلقتك البتة!!»[1].

(١) المرجع نفسه: ص ٢٣٤.

وهكذا يبدو أنه من العبث البحث عن أهلية المرأة وحقها في ممارسة حقوقها الإنسانية في ظل مثل هذه الفلسفة التي تنظر إلى المرأة على أنها بطلة رئيسة من بطلات الشر، وأداة فاعلة لإفساد الرجال، ولكن على المجتمع أن يتقبلها لأنها ضرورة لا بد منها لإنجاب الأطفال!!

ثالثاً: المرأة الصينية:

وممّا يذكر عن المرأة في الكتب الصينية القديمة أنّها سميّت «بالمياه المؤلمة» التي تغسل المجتمع أو تكنسه من السعادة والمال. وقد اعتبرها الرجل شراً يستبقيه بمحض ارداته، ويتخلّص منه بالطريقة التي يرتضيها ويشاء. وقد ذهب «كونفوشيوس» إلى اعتبار المرأة متاعاً يباع ويشترى حتى أن هذه الصورة المؤلمة عنها ظلّت سائدة إلى زمن غير بعيد. فقد ذكر أنه في عالم ١٩٣٧ كان في الصين حوالي ثلاث ملايين أَمَة[١]. لم يكن لهنّ أي حق من الحقوق، ولم تكنّ يملكن حتى حق الحياة، إذ كان هذا الحق مرتبطاً بعشيرتهن. وكانت الأَمَة طوال حياتها خاضعة لطاعة الرجل: طاعة أبيها، وطاعة زوجها، وطاعة أخيها

---

(١) عبد المتعال محمد جبري: المرأة في التصور الإسلامي، ص ١٤٤.

البكر في حال غياب أبيها، أو طاعة ابنها في حال غياب زوجها. فهي قاصرة في نظر كل هؤلاء. وهي تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل الرجل، لذلك كانوا في أغلب الأحيان يتخلّصون منها بإغراقها في الماء، أو بتقديمها طعاماً للخنازير، وإذا عاشت فإنها تعيش على الكفاف، فلا تلبث أن يداهمها الموت من قلة التغذية[1].

فالمرأة الصينية إذن، مستضعفة وقاصرة وهي سلعة تباع وتشترى فهي لذلك لا تملك شيئاً ولا ترث، فإذا تزوّجت اعتبرت خادمة لزوجها ولا يتحسن وضعها إلا إذا انجبت ولداً[2]. وإذا مات زوجها، لا يحق لها أن تتزوج من بعده، وإذا بقيت بنتاً فإنها تبقى بائسة وذليلة. وما زالت المرأة في الصين حتى عهد قريب توضع في قدميها الأحذية الحديدية حتى يعطل نموّها ويعوقها عن التحرّك الواسع ويعجزها عن مقاومة الرجل.

رابعاً: المرأة في بلاد ما بين النهرين:

ولم تكن المرأة في العهد السومري أحسن مما كانت عليه أخواتها في البلاد المجاورة سواء على الصعيد

---

(١) عباس العقاد: المرأة في القرآن الكريم، ص ٨٦ ـ ٨٧، ونوال السعداوي: الأنثى هي الأصل، ص ١٧١.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٩٦.

الاجتماعي أو على صعيد الحرية والكرامة والحقوق الإنسانية.

أما عند البابليين، فكانوا ينظرون إليها نظرة احتقار وأنها لم تخلق إلا لخدمة الرجل وإسعاده. وحسبها في شريعة حمورابي التي اشتهرت بها بابل، أنها كانت تحسب في عداد الماشية المملوكة. ويدل على غاية مداها في تقدير مكانة الأنثى، أنها كانت تفرض على من قتل بنتاً لرجل آخر أن يسلمه بنته ليقتلها أو يملكها إذا شاء أن يعفو عنها، وقد يضطر إلى قتلها لينفذ حكم الشريعة المنصوص عليها!![1].

وفيما يتعلق بالمجتمع الأشوري الذي كانت تسوده الروح العسكرية، فقد انخفض فيه مركز المرأة الاجتماعي، وفقدت فيه بعض الحقوق التي كانت تتمتع بها في الحضارتين السومرية والبابلية إذ أصبحت فيه ملكاً للرجل يحق له أن يحرمها ما تملك، وأن يطلقها متى أراد معتبراً أن لا فرق بينها وبين الحيوان الأعجم. هو يأمر وعليها أن تتلقى الأوامر وتنفذها صاغرة دون أن يكون لها الحق في أن تعترض![2].

خامساً: المرأة في الحضارة المصرية القديمة:

تميّزت الحضارة المصرية القديمة بما خصّت به المرأة

---

(١) (٢) حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى.

من مكانة مرموقة، إذ خوّلتها مركزاً شرعياً تعترف به الدولة وتنال به حقوقاً في الأسرة والمجتمع، حقوقاً قريبة من حقوق الرجل فقد تمتعت المرأة المصرية ـ بصفة عامة ـ بالشخصية الأدبية واكتسبت حقوقاً مادية إذ كان لها أن تملك، وأن ترث، وأن تتولى أمر أسرتها في غياب من يعولها[1]. بل ولها أن تحكم إذ جعلها ملكة تصدر الأحكام وتحكم البلاد. كما أُعتبرت سيدة البيت، فنسب إليها الأبناء في حالات عدة، وإذا مات الزوج، انتقلت إليها السلطة على الأبناء الذين لم يبلغوا سن الرشد حتى في علاقات الأسرة بالدولة. وقد اضطلعت بواجبات مختلفة في شتى الميادين داخل البيت وخارجه[2]. ولكن مع أن المجتمع المصري حفظ للمرأة هذه المكانة المرموقة، ونصب لها التماثيل تعظيماً لشأنها؛ إلاّ أن القانون الجنائي كان بحقها صارماً، إذ سلّط عليها الحكم بالموت، بمجرد الشبهة فيما يتعلق بطهارتها. في حين أعطى الرجل الحق في أن يضاجع قرابته من النساء وأن يتزوج أخواته قصد وضع يده في الغالب على ثرواتهنّ وممتلكاتهن. كما كان له الحق بأن يتزوج بعديد من النساء من غير طبقته، أو أن يتسرى

---

(١) عباس العقاد: المرأة في القرآن الكريم، ص ٨٦ ـ ٨٧، ونوال السعداوي: الأنثى هي الأصل، ص ١٧١.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٩٦.

بهن[1]. كما أنه تجدر الإشارة إلى أن البيئة المصرية القديمة، كانت تسودها الطبقية المطلقة والفرعونية الصارمة، وقد تأثرت حياة المرأة بظروف عائلتها ومكانتها في المجتمع سلباً وإيجاباً. فتأرجح وضعها بين القساوة والرخاء، وبين الذل والامتهان، أو الإعزاز والإكرام، وفق ضعف مكانة أهلها، أو عزّهم في البنية الاجتماعية السائدة[2].

ومجمل القول بأن وضع المرأة الإنساني والاجتماعي، في ظلّ الحضارة الفرعونية القديمة، لم يكن مستقراً على حال واحد من السعادة أو الشقاء. إنّما كان يضطرب مع اضطراب وضعها العائلي في ظل وضع الأسرة الحاكمة، ويستقر إذا ما عاد الاستقرار والطمأنينة إليها[3].

سادساً: المرأة في الحضارة اليونانية:

وفي بلاد اليونان على الرغم من أن الحضارة اليونانية قد تميزت بالعقلانية والفلسفة فإن التشريع اليوناني لم يكن يعترف بحقوق المرأة، ولم يعطها شيئاً تعلو به عن مقام الأنثى إذ اعتبرها مخلوقاً تقل قيمته الإنسانية عن قيمة

---

(١) المرجع نفسه، ٢/ ٩٧.

(٢) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٢/ ٩٧.

(٣) المرجع نفسه، ٢/ ٩٧.

الرجل، وليس لها إلا أن تعمل في خدمة البيت وتدبير المعيشة فيه، وتؤدي وظيفة الولادة. ولقد قال فيها «ديموستان» خطيب اليونان الشهير: «هُنَّ لنا مدبّرات أمينات لبيوتنا، وأمهات لأولاد شرعيين لمستقبلنا»(١).

ولم تكن نظرة «سقراط الحكيم» (ولد عام ٤٧٥ ق .م.) إلى المرأة أسمى بكثير من نظرة «ديموستان» إليها. فلقد اعتبر سقراط «أن وجود المرأة هو أكبر منشأ للأزمة وأوسع مصدر للإنهيار في العالم وأن المرأة تشبه شجرة مسمومة ظاهرها جميل، ولكن عندما تأكل منها العصافير تموت حالاً»(٢).

حتى «أرسطو» لم يخرج كثيراً عن رأي سقراط في المرأة. فقد أعلن: «أن الطبيعة لم تزود المرأة بأي استعداد عقلي يعتدّ به. لذلك يجب أن تقتصر مهماتها على شوؤن التدبير المنزلي والأمومة والحضانة وما إلى ذلك. ثم هو لم يتردد بعد ذلك، في وضع المرأة في قائمة المحجورين الذين اتفقت كل القوانين على عدم اعتبارهم أهلاً للتصرف، قائلاً: «ثلاثة ليس لهم حق التصرف بأنفسهم:

---

(١) نوال السعداوي: الأنثى هي الأصل، ص ١٧٠ ، جان يويورت: مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، ص ٦٦.

(٢) عبد العال: المرأة في التصور الإسلامي. ص ١٧٣.

أ ـ العبد ليس له إرادة.

ب ـ الطفل له إرادة وهي ناقصة.

ج ـ المرأة لها إرادة وهي عاجزة»[(١)].

وظلت المرأة اليونانية مسلوبة الحرية، مهضومة الحقوق، تتزوج بدون رضاها، وتحرم من الثقافة والتعليم حتى سُمي المجتمع اليوناني «بنادي الرجال»! وكان من نتيجة ذلك، أن لجأت المرأة إلى الخروج عن حدود المجتمع وقوانينه، وأن كثر عدد البغايا، وأصبح عدد الأبناء غير الشرعيين كبيراً[(٢)]. حتى أن كثيراً من النساء أخذن يلقين بأبنائهن على قارعة الطريق ليتخلّصن من أعباء الأمومة[(٣)]. وكان اليوناني يتفاخر بوجود ثلاث طبقات من النساء في نطاق امّته: ثلاث طبقات تشكل إحداها الزوجات الشرعيات والطبقة الثانية النساء النصف شرعيات، والباقيات بطبيعة الحال ـ وهُنَّ الثلث ـ يشكلن طبقة البغايا[(٤)].

هكذا كان المجتمع اليوناني يحكم على المرأة

---

(١) Ney Bensadon: Les droits de la femme des origines jusqu'à nos jours.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٦/ ٢١.

(٣) المرجع السابق. ٦/ ٢١.

(٤) السيد أمير علي: روح الإسلام. ص ٢٢٢.

الإغريقية بالانزواء والانعزال، فشلّ إرادتها وحرمها من جميع الحقوق الشرعية ومن المكانة الإجتماعية المرموقة، قاصراً مهمّتها على شوؤن البيت الداخلية، وعلى الولادة!
ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن المرأة في «**أسبرطة**» كانت قد منحت بعض الحقوق المدنية المتعلقة بالإرث، ولم تكن هذه الميزة، وليدة تشاريع أو نصوص قانونية، وإنّما كانت بسبب وضع المدينة الحربي حيث شغف الرجال بخوض المعارك الحربية، ممّا أفسح المجال أمام المرأة أن تخرج من عزلتها في بيتها، لشراء حاجاتها أثناء غياب زوجها. وهذا ما جعل وضعها أفضل من المرأة التي كانت تعيش في «أثينا» وبقية البلدان اليونانية الأخرى.

ومع ذلك فقد انتقد «أرسطو» هذه الحرية الجزئية التي تمتّعت بها المرأة الإسبرطية، واتّهم رجال اسبرطة بالتساهل مع نساء مدينتهم، وعزا سقوط هذه المدينة واضمحلالها إلى هذه الحرية التي أعطيت للمرأة والإسراف في الحقوق الممنوحة لها[1].

ولكن على الرغم من هذا الإجحاف في الحقوق المسلوبة من المرأة، بوجه عام، فلقد وصلت المرأة في

---

(١) العقاد: المرأة في القرآن الكريم، ص ١٨٥، ومصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، ص ١٤.

الامبراطورية اليونانية، إلى منزلة رفيعة وسامية إلى حد المبالغة، فكان منها آلهة «كأفروديت» و «أثينا» و «فينوس» وسواهن[1]؛ ولكن هذه المنزلة الرفيعة التي وصلت إليها، في فترة من الفترات لم تكن على أية حال لتحسن وضعها القانوني في جميع الطبقات وعلى ممر الأزمان!

سابعاً: المرأة في الحضارة الرومانية:

ولم يكن حظّ المرأة الرومانية، في القانون الروماني، بأحسن من حظ أختها اليونانية، نظراً لما بين الحضارتين من تفاعل عميق وبعيد المدى. فقد كان مذهب الرومان في الحكم على المرأة كمذهب الهنود الأقدمين، بل زاد القانون الروماني في الجور عليها، إذ اعتبرها قاصرة، مسلوبة الحرية، وعديمة الأهلية مَثَلُها في ذلك مثل الصغير والمجنون[2]. فالمرأة الرومانية لا تملك حقّ التصرّف إلاّ مع رقابة رجل، أباً كان أم زوجاً أم ابناً أم وصيّاً. فهي إن كانت بنتاً تخضع للسلطة الأبوية، أي لسلطة رب الأسرة، الذي يملك الحق في قتلها والتصرف بها كيفما يشاء، وإن كانت زوجة انتقلت السلطة والسيادة إلى الزوج الذي يعتبرها من السلع التي يبتاعها من الأب، فتتجرّد بذلك من

---

(١) مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، ص ١٤.

(٢) Glatz. V.: La solidarité de la femme en Grèce. p.31 .

ديانتها ومن نسبها إلى أهلها، ومن حقها في مال أسرتها، وإذا حدث أن تفضل أب على ابنته، عند تزويجها بشيء من ماله، كان للزوج حق التصرف بهذا المال، بل أكثر من هذا كان لأب الزوج أو لجدّه حقّ التصرف في زوجة ابنه أو حفيده بالطلاق والبيع والاستيلاء على حقوقها الخاصة. ولم يكن لها حق المطالبة بالطلاق من زوجها مهما كانت الدوافع لهذا الطلب من ظلم أو جور[1]. كما لم يكن مسموحاً لها أن تكون وصية على أولادها ولا أن تعترض أمام المحاكم مهما كان جرم زوجها المقترف بحقها فظيعاً. كما أنه ليس لها حق المطالبة بإرث مال زوجها إذا حرمها منه! ومن بين القوانين الرومانية ما يمكّن ولّي المرأة من منعها من الزواج إذا لم يكن موافقاً[2].

ثامناً: المرأة العربية في العصر الجاهلي:

أما في الجزيرة العربية، فلم يكن وضع المرأة بأفضل من وضعها في سائر البلاد على تنوّع عاداتها وشرائعها. إذ كان شأنها يسؤ تارة فتهبط إلى الحضيض، أو يتحسن تارة أخرى، فتتبوأ معه مركز الصدارة في مطالع القصائد الغزلية والحربية، وذلك تبعاً للأوساط الإجتماعية التي كانت تنتمي إليها المرأة، فقد كان العرب في جاهليتهم يعيشون عيشة

---

(١) Ney Bensadon: Les droits de la femme. pp: 27. - 30.

(٢) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٩/١٨.

قبلية مضطربة، تسودها الفوضى، ويغلب عليها التمزّق الاجتماعي، وتطغى عليها فكرة تسلط الأقوياء على الضعفاء. ولقد كانت القبيلة في ظلّ هذا النظام تؤثر البنين على البنات، وتفضلهم عليهن لما تجد فيهم من القوة والبطش دفاعاً عن مصالحها وذوداً عن أراضيها.

وقد كان الظلم في بعض القبائل العربية، يدفع الآباء إلى التخلّص من البنات بوأدهنّ خوفاً من العار والفقر والسبي، وهذا أبشع ما وصلت إليه القسوة البشرية، في امتهان الإناث وظلمهنّ!!

ولكن على الرغم من هذه القسوة التي رزحت تحتها المرأة في بعض الأوساط الجاهلية البدائية، فقد استطاعت المرأة أن تظهر مزاياها، وأن تحتل مكانة سامية في بعض الأوساط الثرّية الحاكمة حيث سادت وعلا شأنها عند ذويها «كخديجة بنت خويلد» مثلاً، «وهند» زوج أبي سفيان، «وسُبَيْعَة ابنة عبد شمس بن مناف»، وغيرهنّ. حتى أن الكثيرين من ملوك شمال الجزيرة العربية انتسبوا إلى أمهاتهم اعتزازاً بهنّ كعمرو بن هند مثلاً، أو تكنّوا بأسماء بناتهن محبة بهنّ، كالنابغة الذبياني، الذي كان يدعى «أبا دمامة» وأكثر من ذلك، إذ وصل مركز المرأة من المحبة والإعزاز إلى حد أن شنّت الحروب من أجلها، كحرب «ذي قار»، وحرب «الفجار الثانية» وحرب «البسوس» التي دامت أربعين سنة.

هذا باختصار، ما كان عليه وضع المرأة العربية في الأوساط الجاهلية، إنه كان يتأرجح بين ظلم الرجل لها واستبداده بها حتى وأدها وهي طفلة صغيرة، وبين تقديره لها حتى أحلّها مركز الصدارة في قصائده متغزّلاً بها، أو شنّ الحروب من أجلها. ولكنها على أية حال كانت محرومة من حقوقها الطبيعية إلى أن جاء الإسلام، فمنحها من الحقوق المدنية والإنسانية ما لم تشهده امرأة في أي دستور أرضي أو شرعة سماوية، كما سنبين في الفصل الثالث.

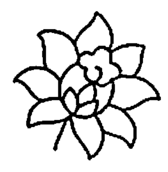
نستخلص مما تقدم، أن وضع المرأة عبر التاريخ القديم، كان رغم بعض الانفراجات وضعاً مأساوياً ومخزياً، إذ اسيء إليها إساءات كبرى، تحمّلت من جرائها ألواناً متباينة من التعسّف والظلم، وعانت فنوناً متعددة من الهوان والذل، فنعتت نعوتاً قاسية فكانت عند بعضهم «لعنة ونذير شوؤم» وعند البعض الأخر «مياهاً مؤلمة تكنس السعادة من البشرية»، وسميت «عاهراً ومساعدة للشيطان» عند غيرهم. وحُكم عليها بأنها سبب الشرور والآثام والآلام، وحكموا عليها بالموت طفلة أو شابة يانعة في بعض المجتمعات وحرموا من نجا منهن من الحقوق الإنسانية والمدنية، أو حصروا دورهن في هذه الحياة على الإنجاب فقط! حتى أن بعضهم قد تمنّوا لو وجدوا طريقاً آخر للإنجاب في استمرار البشرية إذاً ليقضوا على المرأة نهائياً!!

الفصل الثاني

«وضع المرأة في اليهودية والنصرانية»:

١ ـ في اليهودية.

٢ ـ في النصرانية.



أولاً: وضع المرأة في اليهودية:

طالت معاناة المرأة على النحو الذي رأينا عبر حضارات الأمم القديمة. وباتت تنتظر من يخلصها من هذا الظلم والهوان. وإذا بالبركة تهبط عليها من ربّ السماء لتنقذها من هذه الترّهات إذ جاء موسى عليه السلام ونزلت عليه التوراة ومعها الأسفار الخمسة المنسوبة إليه. جاء في سفر التكوين ما يلي: «فخلق الله الإنسان: (على صورته، وعلى صورة الله خلقه). ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله» وقال لهم: «أثمروا واملأوا الأرض واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض»[1].

---

(١) في العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الأول، عدد ٢٧، ٢٨.

والعهد القديم كما جاء في دائرة المعارف العالمية ج: ٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٥٢، هو مجموعة كتابات وضعت خلال أكثر من تسعة قرون للضرورات الحاضرة على مدى أجيال متباعدة أحياناً، وفي وقت متأخر، ولعله في مجرى القرن العاشر قبل الميلاد، كان قد وضع النص اليهودي للأسفار الخمسة التي شكلت فيما بعد هيكل الأسفار الخمسة المنسوبة إلى «موسى» وهي: سفر التكوين ـ وسفر الخروج ـ وسفر الأحبار ـ وسفر =

فهذه البركة الإلهية التي منحت للإنسان لَتبشّر بواقع مرموق، ومركز اجتماعي ممتاز تسود فيه الألفة والمحبة والاحترام كما تسود العدالة والمساواة بين شطريْ هذا الإنسان: الذكر والأنثى. إذ خاطبهما الله معاً بضمير واحد ليشعر بتمام التلازم والتساوي فيما بينهما. وإن دعوة الخالق لهما معاً لكي يثمرا الأرض ويخضعاها ويتسلطا على بحرها وسمائها لهي بحدّ ذاتها دعوة عمل مباركة فتحت مجالاً واسعاً أمام المرأة لكي تمارس نشاطاتها، وتتحمل مسئولياتها في مجالات الحياة كافة، فكان أن تبوأت مركزاً حساساً إبان اليهودية، إذ وصلت إلى منصب القضاء كالسيدة «دبّورة» مثلاً التي شغلت هذا المنصب، وقد تكون أول قاضية في عالم المرأة. وأنها

= العدد ـ وسفر التثنية. التي تشكل العناصر الخمسة الأولى من مجموعة تسعة وثلاثين كتاباً من العهد القديم: التوراة.

وكتابات العهد القديم، لم تُعطَ شكلها إلاّ قبل المسيح بقرن واحد، **ولم يصبح هذا الشكل بالنسبة إلى الكثيرين نهائياً إلاّ في القرن الأول بعد الميلاد.**

وهكذا ظهر العهد القديم كصرح لأدب الشعب اليهودي من أصوله حتى العصر المسيحي. وقد حررت الأجزاء التي يتألف منها وتمت وروجعت فيما بين القرن العاشر والأول قبل المسيح: (عن كتاب «**التوراة والإنجيل والقرآن والعلم**» للكاتب الفرنسي موريس بوكاي، ص ٢١ ـ ٢٢، ١٩٧٤).

فضلاً عن كونها قاضية فقد عرفت في سفر القضاة - على ما ذكر - بأنها نبيّة أيضاً. وقد كان الناس يقصدونها لتفصل فيما بينهم. هذا فضلاً عن بطولاتها الحربية، إذ عرفت بخططها العسكرية، وتدريباتها الفنيّة البارعة للجيوش التي كانت تكفل الفوز والنصر لبني إسرائيل على الكنعانيين»[1].

ولم تكن «دبّورة» آنذاك، المرأة الوحيدة التي اشتهرت بذكائها وحنكتها في الأمور السياسية، إنما كانت هناك نساء كثيرات عرفن بحكمتهنّ وذكائهنّ في إدارة دفة الأمور. نذكر منهن «استير» التي تبوأت سدّة الملك والرياسة. وقد أفرد لها «العهد القديم» من التوراة سفراً خاصاً بها عرف «بسفر استير»، يروي تاريخ النصر الذي حققته لشعبها عندما خلصته بحنكة ودهاء من الحكم الفارسي. وتخليداً لهذا الخلاص الكبير، وهذا الانتصار الرائع، الذي حققته هذه الملكة لليهود، فقد جعل هؤلاء من يوميْ الرابع عشر والخامس عشر من شهر آذار من كل سنة عيداً شعبياً خالداً يحتفلون به، عرف عندهم باسم «فوريم»[2].

أما وضع المرأة القانوني في اليهودية فإن الشريعة قد

(١) العهد القديم. سفر القضاة الإصحاح الرابع والخامس: ص ٣٨٥ - ٣٨٨.

(٢) سفراستير: الأصحاح التاسع، عدد ٢٦.

ساوت بينها وبين الرجل في أحكام الزنا فقط. جاء في سفر اللاويين أنه: «إذا زنا رجل من امرأة قريبة، فإنه يقتل الزاني والزانية، وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه، فيكون قد كشف عورته فإنهما يقتلان كلاهما، دمهما عليهما. وإذا اتخذ رجل امرأة وأمها، فذلك رذيلة في النار، يحرقونه وإياها، لكي لا يكون رذيلة بينكم»[1].

أمّا خارج أحكام المساواة في الزنا، فلم تأخذ المرأة اليهودية حقّها من الحرية الشخصية، في الزواج أو في الميراث، إذ ليس للبنت في شريعة موسى نصيب في تركة أبيها إذا كان له عقب من الذكور. والحكم المنصوص عليه في حق الميراث يقضي بحرمان البنات ما لم ينقطع نسل الذكور، وأن البنت التي يؤول إليها الميراث، لا يجوز لها أن تتزوج من سبط آخر حتى لا ينقل ميراثها إلى غير سبطها[2].

(١) سفر اللاويين: الإصحاح الثامن عشر. عدد: ٢٠.

(٢) هذا الحكم منصوص بالنص الصريح في سفر العدد، الإصحاح السادس والثلاثون كما يلي: «لا يتحول نصيب لبني إسرائيل من سبط إلى سبط. بل يلازم بنو إسرائيل كل واحد نصيب سبط آبائه. وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بني إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكي يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر، بل يلازم أسباط بني إسرائيل كل واحد نصيبه». =

ولكن على الرغم من هذه المكانة المرموقة إلى حد ما، والتي حصلت عليها المرأة اليهودية في ظل الشريعة التوراتية، فإنه سرعان ما ساءت حالها بعد النبي موسى عليه السلام. إذ عادت المرأة لتعاني كسابق عهدها، من ظلم الرجل وتسلطه عليها؛ فهي أصبحت في نظر بعض رجال اليهودية «لعنة من اللعنات» بعد أن حمّلوها مسؤولية كل البلايا التي تعم البشرية، لأنها ـ على زعمهم ـ هي التي أغوت آدم فأكل من الشجرة المحرّمة، فغضب الله عليها، وعلى رجلها آدم بسببها، فطردهما معاً من الجنة. وإذا بحواء، بعد هذا الإتهام، لم تعد نظيراً لآدم في عمارة الأرض، كما جاء في سفر التكوين، إنّما انقلبت في نظرهم إلى «رجس من عمل الشيطان».

ونظراً لأهمية هذا الاعتقاد الذي كَمُن في أذهان رجال الدين، وفشا بين الناس، ونظراً لما آل إليه سوء

= وفي نفس السفر الإصحاح السابع والعشرون ما يلي: تقدمت بنات صلفحود بن حافر. ووقفن أمام موس والعازار الكاهن وأمام الرؤساء وكل الجماعة لدى باب خيمة الاجتماع قائلات: «أبونا مات في البرية ولم يكن له بنون. لماذا يحذف اسم أبينا من بين عشيرته، لأنه ليس له ابن، اعطنا ملكاً بَيْن أخوة أبينا فقدم موسى دعواهن أمام الرب.

أحوال المرأة، وتدنّي مكانتها في الحياة الاجتماعية بشكل عام، فإني رأيت أن أعرض قصة «آدم وحواء والشجرة المحرّمة» كما وردت في سفر التكوين، لأنظر في موقف أحبار اليهود الذين صيَّروا قضية الأكل من الشجرة المحرّمة خطيئة كبرى، بل «خطيئة مميتة وموروثة» تنتقل في نظرهم من الآباء إلى الأبناء، وتبقى حواء وحدها بالتالي المسؤولة عن هذه الجريمة النكراء، وعن هذا الإثم العظيم!!

قصة آدم وحوّاء و «الخطيئة الأولى» كما وردت في سفر التكوين[١]:

---

(١) ذكر موريس بوكاي في كتابه: **التوراة والإنجيل والقرآن والعلم**، ص ٢١، ٢٢ ما يلي: «إن العهد القديم ظهر كأدب للشعب اليهودي من أصوله حتى العهد المسيحي... وقد اختلط الوحي بكل هذه الكتابات، ولا نعرف منها اليوم إلاّ ما تركه لنا منه الذين عالجوا نصوصه حسب هواهم، وفقاً للظروف التي وجدوا فيها، والضرورات التي واجهوها.. ويتابع قائلاً: وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية مع تلك الموجودة في مقدمات التوراة المختلفة، نتأكد من أن الوقائع مسوقة فيها بطريقة متغايرة جداً. إنّنا بغض النظر عن الوقائع الأساسية المتعلقة بتحرير الأجزاء، لا نزال نجد التباسات تضلل القارىء، وتخفض أهمية الوقائع حتى يصل بها الأمر إلى حد تشويه الحقيقة، وكثير من المقدمات أو من المداخل وضعت للتوارة تخفي الحق على هذا النمط... =

أورد سفر التكوين في الإصحاح الثالث، قصة آدم وحواء على النحو التالي:

«. . . وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البريّة التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة:

«أحقاً قال الله، لا تأكلا من كل شجر الجنة؟».

ـ فقالت المرأة للحيّة: «من ثمر شجر الجنة نأكل، وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقد قال الإله: «لا تأكلا منه، ولا تمسّاه، لئلاّ تموتا».

ـ فقالت الحيّة للمرأة: «لن تموتا! بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه، تتفتح أعينكما، وتكونان عارفين الخير والشر».

فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق التين، وصنعا لأنفسيهما مئزراً. وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب وسط شجر الجنة. فنادى الرّب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟

= وإنّه لمن المؤسف أن نرى الابقاء على المفاهيم الخاطئة على العهد القديم مبسطة بين أيدي الناس.

ـ فقال آدم: سمعت صوتك في الجنة، فخشيت لأني عريان فاختبأت.

ـ فقال الإله: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألاّ تأكل منها؟.

ـ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي، هي أعطتني من الشجرة، فأكلت.

ـ فقال الرب الإله للمرأة: «ما هذا الذي فعلت؟».

ـ فقالت المرأة: الحية غرّتني فأكلت».

ـ فقال الرب الإله للحية: «لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة. وبينك وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين رأسه».

ـ وقال للمرأة: «تكثيراً أُكثّر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادك. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك.

ـ وقال لآدم: «لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعرق جبينك.

تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك من تراب وإلى تراب تعود» (انتهت الرواية).

١ ـ نزول حكم الله بحق آدم وحواء والحيّة:

وهكذا، وفقاً لما ورد في سفر التكوين فإن الخالق العادل قد أَصدر الأحكام بحق كل من آدم وحواء والحيّة. لأن الله أمر فلم يُطَع أمرُه، ونهى فلم يَنْتهِ المنتهون. فاستحقوا جميعاً عقابه، فطردهم من الجنة...

ولكن آدم نال النصيب الأشد قسوة من هذا العقاب، لأن الله خصّه بالتوصية وأفرده بالتحذير أمراً ونهياً بقوله: «... أوصيتك، فلا تأكل منها.. لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً»[١] ولكن، فيما بعد، حمّل رجال التوراة حواء وحدها وزر هذه الخطيئة وأمطروها بوابل من اللعنات؛ لقد اعتبروها «رجساً من عمل الشيطان» فظلموها وقهروها ونبذوها، وجعلوها نجسة، مغلوبة على أمرها، إلى أن ترسخ لديهم الاعتقاد بأن حواء هي وحدها المسؤولة عن أرتكاب المعصية بالأكل من الشجرة المحظورة! ولم يكتفوا بذلك، بل جعلوا من هذه المعصية خطيئة كبرى وموروثة، تنتقل من حواء إلى بنات جنسها من بعدها وهذا ما جعل،

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح الثالث.

فيما بعد «ناتان» يقول: «ها أنذا بالإثم صُوِّرتُ، وبالخطيئة حملت بي أمي»[1].

يتضح مما تقدم أن فكرة «الخطيئة» المنسوبة إلى «حواء»، قد تدرّجت في نفوس رجال اليهودية على مرّ الأيام حتى جعلوا منها السبب الذي أورث البشرية وزر هذه الخطيئة، وبسببها ـ على زعمهم ـ دخل الموت إلى العالم! لذلك استحقت حواء منهم اللعنة الأبدية، حتى أصبحت في نظرهم «أمرّ من الموت». وجنحت السلطة الدينية عندهم إلى اعتبار المرأة دون مرتبة الرجل، فجرّدوها من جميع حقوقها، وحكموا عليها أن تكون تحت سلطة الرجل ـ في مختلف مراحل حياتها ـ إلى أن تموت. وسمحوا للرجل أن يطلق امرأته متى شاء، ولأي سبب كان، وبالغوا في تحقيرها، إذ تصبح نجسة، بعد الطلاق.

ففي سفر التثنية جاء أنه: «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه، لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يدها، وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته، ذهبت، وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الأخير طلّقها من بيته. وإذا مات هذا الأخير الذي اتخذها زوجة، لا يقدر زوجها الأول

---

(١) مزمور ٥١، آية: ٥.

الذي طلقها أن يعود ويأخذها زوجة بعد أن تنجّست، لأن ذلك رجس لدى الرب»[1].

وطغت فكرة النجاسة على الأذهان مما جعل المرأة «نجسة» طيلة أيام طمثها. وكل فراش تجلس عليه يصبح نجساً. وكل الأمتعة تكون كذلك نجسة، وكل من مسها يكون نجساً، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء».

وعندما تطهر من طمثها، في اليوم الثامن، تأخذ لنفسها يمامتين وتذهب بهما إلى الكاهن كي يكفر أمام الرب عن نجاستها، ويطهر بني إسرائيل من نجاستهم لئلا يموتوا في نجاستهم»[2]. علاوة على ما سبق فقد حذر التلمود اليهود من المرأة بقوله:

«إنه خير للإنسان أن يمشي وراء أسد من أن يمشي وراء امرأة».

كذلك أورد «دول ديورانت» صاحب كتاب «الحضارة» الشهير، في كتابه ما يلي: «درت وقلبي لأعلم ولأبحث، ولأطلب حكمة وعقلاً، ولأعرف أن الشر جهالة، والحماقة جنون. فوجدت أمرّ من الموت، المرأة، التي هي شباك،

---

(١) سفر التثنية: الإصحاح الرابع والعشرون، ١ ـ ٤، ص ٢١٧.

(٢) سفر اللاويين: الإصحاح الخامس عشر، ٢٥ ـ ٣١، ص ١٨٣.

وقلبها شراك، ويداها قيود. الصالح قدام الله ينجو منها. أما الخاطىء، فيؤخذ بها»[1].

ونختم كلامنا عن وضع المرأة في اليهودية بالنسبة لحقوقها كافة، بما أورده «غوستاف لوبون»، إذ قال: «أمّا التوجيهات الصادرة عن أحبار اليهود والمتعلقة بالمرأة، فقد تأثرت بالتقاليد السابقة لها، حيث أن التوراة تعتبر الزوجة من أملاك زوجها، في مقابل المال الذي قدّمه إلى الأب. وهي مقابل ذلك تتنازل عن حقوقها الإنسانية والمادية».

ثانياً: وضع المرأة في المسيحية:

ظلّت فكرة الموت والخطيئة وحواء تتفاعل في النفوس، وتزداد تأزّما كلّما طلع فَجْر أو حلّ ظلام... وبقي وضع المرأة الاجتماعي والإنساني يتدهور مع تطور هذه الأفكار من سيء إلى أسوأ، ويخضع للترهات الوثنية من ناحية، ولانحراف رجال اليهودية وتسلّطهم من ناحية ثانية، إلى أن جاء المسيح ابن مريم، فتنّسمت المرأة نسيم الأمل عسى أن ينقذها «المخلص» من هذه التهمة المنسوبة إليها وحدها ظلماً وافتراء.

وبالفعل لم يخب ظن المرأة بسيدنا عيسى عليه

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١١ ـ ١٤.

السلام، إذ كان رسول محبّة وسلام، وكان نصير المظلومين والمستضعفين من الرجال والنساء، وقد أولى النساء عناية خاصة، فيها من العطف والمحبة والشفقة ما جعلهن يثقن به أولاً، وبأنفسهّن ثانياً. إذ تعهدَهُنّ بنفسه، وعلّمهنّ مبادىء الدين والخلق القويم. كما علمهنّ كيف يكون الإيمان بالله سبيلاً إلى الخلاص من الهلاك، وكيف تكون التوبة طريق الأمل والرجاء للفوز بالعفو والغفران. يوافق هذا القول ما ورد في إنجيل يوحنا عن السيد المسيح، إذ قَدِم ذات مرة إلى الهيكل ليعلم تلاميذه أو قدّم إليه أحدهم امرأة أُمسكت في زنا. ولما أقاموها في الوسط، قالوا له: «يا معلم، هذه المرأة أُمسكت وهي تزني في ذات الفعل. وموسى في الناموس، أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت؟». قالوا هذا، ليجرّبوه لكي يكون لهم ما يحتجون به عليه، **وكان يسوع منحنياً إلى أسفل يكتب** بإصبعه على الأرض، ولمّا استمرّوا يسألونه انتصب وقال لهم: **«من كان منكم بِلا خطيئة، فليرمِها أولاً بحجر!!»**.

فلما سمعوا ردّه وكانت ضمائرهم تبكتّهم خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين. وبقي يسوع وحده، والمرأة واقفة في الوسط. ولم يكن في المكان أحد سوى المرأة فقال لها: «يا امرأة، أين هم أولئك المشتكون عليك؟ أما دانك أحد؟ قالت: **«لا أحد يا**

سيد». فقال لها يسوع: (ولا أنا أدينك. إذهبي ولا تخطي أيضاً»[1].

وممّا يروى عنه أيضاً، أن أحد الفرّيسيين سأله أن يأكل معه. فدخل السيد المسيح بيت الفريسيّ واتكأ. وإذا امرأة في المدينة، كانت خاطئة، إذ علمت أنه متكىء في بيت الفريسي، جاءت بقارورة طيب، ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع. وكانت تمسحهما بشعر رأسها، وتقبل قدميه، وتدهنهما بالطيب.. وتعجّب الفريسيّ من رعاية السيد المسيح لها... عندئذ التفت يسوع إلى المرأة، وقال لسمعان: «أُنظر هذه المرأة؟ إني دخلتُ بيتك، وماء لأجل رجليّ لم تُعطِ! وأما هي، فقد غسلت رجليّ بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها. قبلة لم تقبلْني! وأما هي، فمنذ دخلتُ، لم تكفّ عن تقبيل رجليّ... بزيت لم تدهن رأسي! وأما هي، فقد دهنت بالطيب رجليّ. من أجل ذلك، أقول لك:

قد غفرت خطاياها الكثيرة، لأنها أحبت كثيراً. والذي يغفر له قليل، يحب قليلاً».

ثم قال للمرأة: «مغفورة لك خطاياك»[2].

---

(١) إنجيل يوحنا: الإصحاح الثامن، ص ١٦١ .آية: ٢ ـ ١١.

(٢) إنجيل يوحنا: الإصحاح الثامن، عدد ٢ ـ ١١، ص ١٦١.

وممّا يروي عنه أيضاً، في مجال الخطيئة والغفران، أنه عندما نظر إلى الفريسيين الذين قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشّارين والخطاة، أنه قال: «**لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى**».

فاذهبوا وتعلموا ما هو. «**إنّي أريد رحمة لا ذبيحة لأني لم آت لأدعو أبراراً، بل خطاة، إلى التوبة**»[1].

وبفضل هذه التعاليم السمحة والسامية، اطمأن قلب المرأة إلى السيد المسيح الذي شملها بعطفه ورعايته، وتعلمت منه كيف أنها أهل لعبادة الله، وكيف أن محبة الله والإيمان به، والتوبة الخالصة، تقودها إلى طريق الغفران، والخلاص والتقرب من الله. وهكذا شعرت المرأة بالطمأنينة فراحت تمارس واجباتها الدينية والاجتماعية على أكمل وجه حتى اشتهر في المجتمع المسيحي عدد لا يستهان به من السيدات الفاضلات التقيّات العاملات نذكر منهن على سبيل المثال: «**مريم المجدلية**» التي فازت ببركة السيد المسيح، ونالت من الشرف والمجد والسؤودد وعلوّ المنزلة، ما جعلها سفيرة قومها، تذهب إلى الأمبراطور الروماني «طيباريوس» تطلب منه الانتصار للحق، وإعلان حرية العقيدة، إذ اضطهد اليهودُ، في عهده، المسيحيين،

---

(١) إنجيل متى: الإصحاح التاسع، ١١ ـ ١٣، ص ١٥.

وضيّقوا عليهم الخناق، فاستجاب الأمبراطور إلى طلبها، وأعيدت للكنائس حريتها بفضل حنكتها وسياستها في تدبر الأمور!

وكذلك «فيبي»! هي خادمة الكنيسة وقدّيسة أيضاً. وقد قامت بأعمال صالحة، بوّأتها مركزاً مرموقاً بين تلامذة السيد المسيح أنفسهم. إذ نوّه بولس الرسول بخدماتها الجلى ومساعدتها للمحتاجين وقد أوصى بها خيراً تلامذته قائلاً لهم:

«أوصي إليكم بأختنا «فيبي»، التي هي خادمة الكنيسة في كنجريا، كي تقبلوها في الرب، كما يحق للقديسين، وتقدموا لها أيّ شيء احتاجته منكم، لأنها صارت مساعدة لكثيرين، ولي أنا أيضاً»[1].

ولم تكن «فيبي» وحدها خادمة الكنيسة المخلصة في عملها، فهناك أخوات لها في الإنسانية، قمن بأعمال مماثلة استحقت إعجاب الرسول «بولس» ذاته. فنوّه بأعمالهن أيضاً وشكرهن على إخلاصهن وتفانيهن في خدمة الكنيسة وخصّ بعضاً منهنّ بالذكر في رسالته إلى أهل رومية نذكر منهن: ««تَريفَينا»، وَ «تَريفُوسَا»، الناعمتين في الرب.

---

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية: الإصحاح السادس عشر، عدد ١، ص ٢٦٧.

وَبَرْسيسَ المحبوبة التي تعبت كثيراً في الرب وغيرهن. . .
سلمّوا على «فليُولُوغُسَ» و «جوليا» و «نِيرِيُوسَ» واخته
وعلى جميع القديسين الذين معهم. . .»[1].

وإذا كانت المرأة قد نعمت بمركز اجتماعي مرموق في عهد السيد المسيح، واحتلت مكانة دينية مرموقة، فالأوْلى أن يتعزّز مقامها في الأسرة أماً وزوجاً. لذلك لم يتوانَ السيد المسيح عن الوصية بإكرام الوالدين بقوله»: **أكرم أمك وأباك»**[2]. وقد خصّ الأم بوصيته لأنه هو ذاته كان في حياته المثل الأعلى في حسن المعاملة وإكرام الأم. أما وصيته بالمرأة زوجاً فيكفيها من «المعلّم» أنه حدّ من حرّية الرجل في أن يطلّق امرأته ساعة يشاء، ولأي سبب كان، كما كان حالها في اليهودية. وكأنما هذا التسيّب في الطلاق الذي كان شائعاً من قبل، والجور الذي كانت تعاني منه المرأة، هو الذي حدا بسيدنا عيسى عليه السلام أن يتشدّد في أمر الطلاق، ليحافظ على كرامة المرأة، لكي لا تكون مجرد متعة يستمتع بها الرجل ثم يلقي بها جانباً، أو يقذف بها إلى رجل آخر، بعد أن يطلّقها، ليستنفد طاقتها ويتمتع بحيويتها ثم يطلقها مرة ثانية وهكذا. . . إلى أن تُرمى في

(١) المصدر نفسه، عدد ١٢ ـ ١٥، ص ٢٦٧.
(٢) إنجيل متى. الإصحاح التاسع عشر: آية: ١٩ .ص ٣٥.

زاوية من زوايا الإهمال بالبيت كأنها متاع أبلاه الزمن وأضاع جدّته كثرة الاستعمال كما كان الحال في اليهودية، من قبل!.

وممّا يذكر أيضاً عن سيدنا عيسى عليه السلام في هذا المجال أنه عندما جاء إليه الفريسيون ليجربوه ويمتحنوه في مسألة الطلاق قائلين له: هل يحلّ للرجل أن يطلّق امرأته لكل سبب؟

فأجاب قائلاً لهم: **أما رأيتم أن الذي خلق من البدء، خلقهما ذكراً وأنثى**، وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكون **الإثنان جسداً واحداً**. إذ ليسا بعدُ اثنين، بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان».

قالوا له: «فَلِمَ أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق فتطلق؟

قال لهم: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم، أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء، لم يكن هذا. وأقول لكم: إن من طلّق امرأته إلا بسبب الزنا، وتزوج بأخرى، يزني. والذي يتزوج بمطلقة يزني.

قال له تلاميذه: إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة، فلا يوافق أن يتزوج.

فقال لهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام. بل الذين أعطي لهم. لأنه يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس. ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. فمن استطاع أن يقبل، فليقبل»[1].

هذه هي وصية السيد المسيح عندما جاء إليه الفريسيّون ليمتحنوه في مسائل الزنا والزواج والطلاق. ولكن أتباع سيدنا عيسى عليه السلام غالوا في تقشفهم وفي تقربهم إلى الله، وفي تزهدهم بطلب متاع الدنيا، فانتحوا منحى تقشفياً صارماً داعين أتباعهم إلى الإبتعاد عن «المرأة» لأنها تصرفهم عن عبادة ذات الله، وتثير فيهم ما لا ينبغي أن يُثَار في نفوس الأتقياء، كأنما المرأة نقيض التقى والعبادة والصلاح! ولعلّ أكثر المتحمسين إلى هذه الدعوة التقشّفية في التزهيد في الزواج والابتعاد عن المرأة، هو «بولس» نفسه. إذ ضمّن رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، فلسفته ورأيه في البعد عن الزواج، لأنه يبعد عن التفرغ للعبادة فقال:

- حَسَنٌ للرجل أن لا يمسّ امرأة. ولكن لسبب تفادي

(١) إنجيل متى، الإصحاح التاسع عشر، فقرة: ٣ - ١٢ ص : ٢٤.

الزنا ليكنْ لكل واحد امرأته وليكنْ لكل امرأة رجلها...

- إني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا. لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله.

- ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل، أنه حَسَن لهم، إذا لبثوا كما أنا.

- لكنك، وإن تزوجت لم تخطىء، وإن تزوجت العذراء فلا تخطىء.

ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق في الجسد..

- فأريد أن يكونوا بلا همّ. غير المتزوج يهتمّ في ما للرب كيف يرضي الرب. وأمّا المتزوج، فيهتم في ما للعالم كيف يرضي امرأته. إن بين الزوجة والعذراء فرقاً. غيرُ المتزوجة تهتمّ في ما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً، وأما المتزوجة فتهتم في ما للعالم كيف ترضي رجلها... (٢٢ ـ ٢٣)[1].

ولكن هذه الدعوة إلى التقشف والتزّهد، والإنصراف عن الزواج، والترغيب في الابتعاد عن المرأة لم تلق آذاناً

---

(١) رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: الإصحاح السابع، من رقم ١ ـ ٢٩ .ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦.

صاغية عند عامة الناس، لأنها دعوة تخالف في الأساس الفطرة البشرية، والطبيعة الإنسانية. ومن يقدم عليها يتطلب منه جهداً نفسياً، ورياضة روحية صعبة، وإماتة لذة جسده الطاغية، كي يستطيع المرء أن يميت في نفسه الغريزة الجنسية، ويسمو بها نحو الروحانيات في ملكوت السموات. فكان من نتيجة هذه الآراء الداعية إلى الزهد والتقشّف، أن لجأ الرجل إلى الدير هرباً حتى لا يقع في شباك المرأة تحت وطأة إغراآتها. وهربت المرأة إلى الدير كذلك حتى لا تكون السبب في إغواء الرجل، وحتى لا تتحمل وحدها عبء وزر الخطيئة الأولى، كما عبّر بولس الرسول في رسالته الأولى إلى تيموتاوس، عن هذ الرأي قائلاً:

«وآدم لم يغو، لكن المرأة أغوت فحصلت في التعدي» لذلك لم يأذن لها الرسول «أن تعلّم، ولا أن تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن آدم جبل أولاً، ثم حواء»[1].

وما فتئت آراء «بولس» وأتباعه حول الخطيئة والزنا والزواج والطلاق تتفاعل في النفوس، وتشتد وتقوى مع الزمن حتى بَعُدَ رجال الإكليروس عن تعاليم السيد المسيح

(١) رسالة بولس إلى تيماتاوس: الإصحاح الثاني، عدد ١٤ .ص : ٣٣٠.

التي دعت إلى معاملة المرأة بمحبة ورحمة، كما كان يعلّم في حياته ويردد في أقواله:

«لم آت لأدعو أبراراً، بل خطاة، إلى التوبة»[1].

و «من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها أولاً بحجر».

و «إذهبي ولا تخطي»[2].

و «مغفورة لك خطاياك. إيمانك قد خلّصك، إذهبي بسلام»[3].

وتحوّلت هذه التعاليم السمحة إلى قيود متزمتة أعادت المرأة إلى ما كانت عليه من التبعية للرجل، وإلى رميها بمختلف الإتهامات والترّهات الوثنية حتى غدت المرأة في نظر المسيحيين مصدر شر وغواية. كما صرّح «كريستوم» في قوله: «المرأة شرّ لا بد منه، واغواء طبيعي وكارثة لازمة، وخطر منزلي، وفتنة مهلكة، وشر عليه طلاء»[4].

كذلك جاء في إنجيل لوقا الذي أورد قوله:

«إنها تأتي أيام، يقال فيها: طوبى للعواقر والبطون التي

---

(١) إنجيل متى: الإصحاح التاسع، عدد: ١٣.
(٢) إنجيل يوحنا: الإصحاح الثامن. عدد: ١١ ـ ص ١٦١.
(٣) إنجيل لوقا: الإصحاح السابع. عدد: ٥٠ ص : ١٠٥.
(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٦/ ١٨٢.

لم تلد، والثدي التي لم ترضع»[1].

هكذا ازداد حال المرأة سوءاً، عندما ربط رجال الإكليروس، فكرة الموت بالخطيئة الأولى، على نحو ما فعل احبار اليهودية من قبل، إذ جاء في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس: «ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها، هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في السيد المسيح»[2].

وكذلك جاء قوله لأهل رومية:

«إن الأكل من الشجرة، هو أصل الشر في العالم الإنساني، وكفارته الموت، الذي يصيب الجسد»[3].

* كما قال لهم أيضاً:

«من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد، دخلت الخطيئة إلى العالم. وبالخطيئة الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع... لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعِل الكثيرون خُطاة...»[4].

---

(١) إنجيل لوقا: الإصحاح الثالث والعشرون، آية ٢٩، ص : ١٤١.

(٢) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس. الإصحاح الحادي عشر. آية: ٢ ـ ٣ ـ ٤ .ص : ٣٠٠.

(٣) رسالة بولس إلى رومية: الإصحاح الخامس والعشرون.

(٤) رسالة بولس إلى أهل رومية: الإصحاح الخامس، عدد: ١٣ و ١٤.

ولقد تأثر كثير من الناس بهذه الأفكار كما جاءَ في دائرة المعارف عن لسان «موترد» قوله:

«إن المسيحية، رأت فيما بعد، في «الخطيئة الأصلية» عقيدة من عقائدها، وأساساً من أسس تعليمها، **وأن جميع البشر يرثون بالولادة**، من أبينا الأول، الخطيئة الأصلية، ينبوع الآثام المتراكمة على نسله، والتي كفّر عنها المسيح، آدم الجديد»[1].

ومما زاد في إزدراء وضع المرأة المسيحية، هو تلك النظرة التي نظر إليها رجال الإكليروس فيما بعد إذ حمّلوا حواء وحدها «وزر الخطيئة الأولى» واعتبروا أنها هي التي أخرجت آدم من الجنة. بل تمادوا أكثر فأكثر، في سوء ظنّهم بها عندما تشكّكوا في إنسانيتها، وتساءلوا في مجامعهم الكنسية عمّا إذا كان لها روح كروح الرجل، وإذا ما كان يجب أن توضع بين الوحوش، أم بين الكائنات المفكرة! فقد جاء في كتاب «وستر مارك» أن صرّح أحد كبار القساوسة ذات مرّة في **مجمع ماكون: «بأن المرأة لا تتعلق ولا ترتبط بالنوع البشري**[2]». كذلك فقد أوردت «دائرة المعارف الفرنسية»Encyclopédie Larousse تحديدها

---

(١) فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، مادة آدم، ص: ١٠٧.

(٢) وستر مارك: تاريخ الزواج، ص ٦٦٣.

خبر مجمعين كنسييّن، تناولا قضية المرأة؛ إذ قرر رجال الإكليروس في المجمع الأول الذي انعقد في رومية عام ٥٨٢، أي قبل ظهور الإسلام بقليل:

«بأن المرأة كائن لا نفس له، وأنها لهذا السبب لن ترث الفردوس، ولن تدخل ملكوت السموات، وأنها رجس من عمل الشيطان، فليس لها أن تتكلم، ولا أن تضحك، ولا أن تأكل اللحم، بل غاية أمرها أن تقضي أوقاتها في خدمة الرجل سيدها، أو في عبادة الله ربّها»(١).

وقد تناولت «مدام أفريل» الدفاع عن المرأة في تلك الحقبة من الزمن، وعلّقت على القرار الذي اتخذه رجال الكنيسة الذي اجتمعوا في «ماكون» ليبحثوا فيما إذا كانت المرأة مجرد جسم لا روح فيه، وإذا كانت تُعتبر في عداد البشر أم لا! فقالت: «حفاظاً على كرامة أعضاء هذا المجمع، تبادر رجال الإكليروس، بعد جدال طويل عنيف إلى إتخاذ قرار بالإيجاب، ولكن بأصوات ضئيلة جداً!!!»(٢).

ولما دخلت أمم الغرب في النصرانية، كانت آراء رجال الدين قد أثرت في نظرتهم إلى المرأة، واستمرّ

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية، مادة المرأة.

(٢) Mem Avril de sainte- Croix: le féminisme p. 10.

احتقارهم لها وحرمانهم لحقوقها الإجتماعية طيلة القرون الوسطى. حتى أن عهد الفروسية الذي اعتبر عصر المرأة الذهبي لم يكن في الحقيقة سوى صورة من صور الأحلام تنتهي ـ مع المغالاة فيها ـ إلى سخرية مضحكة، كتلك السخرية التي ابدع فيها الكاتب الإسباني «سرفانتيز»Serventes، بما مثله لنا من خلال بطله «دون كيشوت» على أن حقيقة ذلك العصر كما وصفه صاحب كتاب «التاريخ الموجز للنساء» بأنه «كان عصر الحصان لا عصر المرأة» إذ يقول فيه: «إن عصر الفروسية كان معروفاً بما لوحظ فيه من فقدان الشباب وعلى العموم فقدان الاهتمام بالجنس الآخر... إذ قلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان...».

ومن بعد عصر الفروسية، انتقل الغرب إلى ما بعدها من طلائع العهد الحديث، ولمّا تبرح المرأة في منزلة مسفة لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية العربية، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية!![1].

وما زال حال المرأة المسيحية، يسير من سيء إلى أسوأ، حتى كان القرن السابع عشر الميلادي، إذ غدت

---

(١) عباس محمود العقاد. المرأة في القرآن الكريم. سلسلة كتاب الهلال ص ١٩٢.

المرأة في أدنى درجة من درجات العبودية والذل والإهانة. لقد ألزموها بالصمت: إذ جعلوا على فمها قفلاً: - Muselière - كما ذكرت إحدى المجلات الفرنسية -[1] وأن المرأة، من أعلى الأسر إلى أدناها، كانت تسير في الطرقات، وفي فمها قفل، وتروح وتغدو في دارها، في غياب زوجها، وفي فمها قفل! قفل من حديد! حتى غدا هذا القفل رمزاً لتلك المعاناة التي كانت تعاني منها المرأة على اعتبار أنها أداة اغواء، وآلة شر يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب!»[2].

ومن الغرابة أن نذكر أن القانون البريطاني كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته، وقد حدد ثمن الزوجة بست بنسات.

فقد بيعت امرأة في أسواق إنكلترا عام ١٧٩٠ بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تأويها. ولم يلغ هذا القانون إلاّ في عام ١٨٠٥!!![3].

ولما قامت الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وأعلنت تحرير الإنسان من العبودية والمهانة، لم تشمل المرأة بعطفها إذ نص القانون الفرنسي على أنها ليست أهلاً

---

(١) (٢) مجلة المجلات الفرنسية. La Revue des Revues Françaises .vol. 11. p. 103

(٣) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن الكريم. ص: ١٩٢.

للتعاقد دون رضا وليها إن كانت غير متزوجة. وجاء النص فيه على أن القاصرين هم: الصبي والمجنون والمرأة! واستمر ذلك القانون حتى عام ١٩٣٨ حيث عدلت نصوصه لمصلحة المرأة![١].

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التعنت الغربي في الحكم على المرأة لم يكن إلا لأنها أضحت في نظر معظم رجال المسيحية السبب في المعصية الأولى بأكلها من الشجرة المحرمة. تلك المعصية التي جعلوا منها خطيئة مميتة وموروثة عبر الأجيال، تحمل حواء وحدها وزرها. حتى غدت بذلك رمزاً للشر الذي يصيب العالم أجمع وذلك حسب وجهة نظرهم!!

ولكن حرية البحث في العصر الحديث سمحت لبعض الفقهاء أن ينكروا مسألة الخطيئة. فأعلن الدكتور «كيرلس النجتون» في كتاب له أسماه: «قال الأحمق». قائلاً:

«إن إدانة أَجيال قبل أن تولد من جراء خطيئة آدم يصعب وصفه بالعدل. وإن كانت هذه هي العقيدة المسيحية، فمن الصعب علينا أن ننظر في تزكيتها أمام ضمير الأمة»[٢]. ويعلق

---

(١) مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون. ص: ٢١.

(٢) عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية ص : ١٤٧.

عباس محمود العقاد على هذا الرأي قائلاً:

«ولكن قرار الكنائس في هذا الصدد شيء، وبحوث الفقهاء من أتباع الكنائس شيء آخر لأنها آراء يدينون بها، ويستندون فيها إلى المنطق العلمي قبل استنادهم إلى نصوص الدين»(١).

ولكن الأهم من تصريح «النجكتون» هذا، أن المرأة نفسها قد تحركت أخيراً في المجتمعات النسائية، فتألفت الجمعيات لتطالب بحقوقها وأول ما طالبت به هو فكّ القيود والأقفال والمحظورات التي جعلوها على المرأة، وقد رفعت المرأة صوتها عالياً مندّدة بظلم رجال الدين في جعلهم معصية حواء، بأكلها من الشجرة المحرّمة خطيئة كبيرة ترثها وأحفادها من النساء دون الرجال. وقد تناولت «اليزابيث كادي ستنثون» هذا الموضوع في كتاب عالجت فيه هذه الاتهامات وقد أسمته «توراة المرأة» «the bible woman» نشرته في نيويوك عام ١٨٩٥. ومما جاء فيه، فيما يتعلق بالخطيئة الأولى، قولها: «إن سلوك حواء هو أسمى من سلوك آدم الذي وُجّه إليه النهي وحده، فتجاهل آدم الأمر، وصمت. ولم يتدخل، ولم يبرىء شريكته. إنها فضيحة. إنّ آدم وحده هو المسؤول. ورجال الدين كانوا

---

(١) عباس العقاد: الفلسفة القرآنية، ص ١٤٩.

غير عادلين في نظرتهم إلى حواء»[1].

وإذا كان هذا هو حال المرأة الاجتماعي والإنساني في النصرانية، فإن وضعها المالي لم يكن أحسن حالاً. كما تبين لنا دائرة المعارف التي جاء فيها حول هذا الموضوع ما يلي:

«... فما جاء عن آباء الكنيسة، وما جاء في العهد الجديد أنه لم يكن للبنت حصة من الميراث مع أخيها. وما ذلك إلاّ لأنّ الأبناء جوهر الأجداد، وكيان العائلة، وما ينتقل إليهم منها، يبقى فيها، بخلاف البنات اللواتي ينتقل إرثهن إلى بيتهن. وهكذا تنقص أموال عائلة الأب، وتزيد أموال عائلة الزوج.

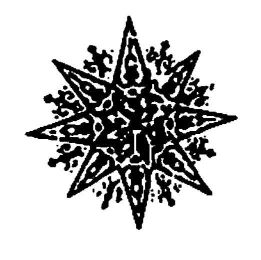
الخلاصة أنه لم يكن للبنات حق في الميراث مع وجود العصب[2].

---

(١) Ney Bensadon: Les droits de la femme p. 11. «da conduite d'Eve est supèrieure à celle d'Adam. L'interdit qui a été lancé seulement à Adam qui laisse faire en silence; ne s'interpose pas et dénonce couardement sa compagne Scandale. C'est lui. Adam. qui est seul responsable; Les exégètes ont été injustes envers Eve».

(٢) فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، العدد التاسع، شفيق حاتم، ص ٣٤ ـ ٣٥.

هذا فضلاً عن أن القانون الكنسي، قد أقرّ للزوج الحق في الإشراف، والنيابة القانونية عن الزوجة، في إدارة أموالها، ولا يحق للزوجة أن تتصرف بأموالها، أو أن تنفقها دون إذن مسبق من زوجها، وقد ظلّ هذا القانون نافذ المفعول في معظم الدول الأوروبية حتى عهد قريب جداً.



الفصل الثالث

موقف الإسلام من المرأة

تكريم الإسلام للمرأة وتنزيهها:



المرأة في التصور الإسلامي

كانت صورة المرأة على ما رأينا في الحضارات السابقة للإسلام صورة قاتمة، حتى أنها وصلت إلى درجة البشاعة والاشمئزاز. إذ أسماها الصينيون «بالمياه المؤلمة» واعتبرها الهنود «لعنة ووباء فتاكاً»، ونظر إليها رجال التوراة على أنها «أساس كل البلايا». وقرّر بعض رجال الاكليروس «أنها كائن لا نفس له، وأنها من جنس غير جنس آدم».

وظلّ وضع المرأة الإنساني والاجتماعي يتأرجح مضطرباً، تعصف به العواصف دونما استقرار، إلى أن جاء سيدنا محمد ﷺ في القرن السادس الميلادي، وأنقذها من هذه الهوّة التي سقطت فيها، فاعترف بإنسانيتها وأقرّ أهليتها وكفاأتها، وأعاد إليها حقوقها المسلوبة عبر الزمن الطويل، وأعلن مساواتها مع الرجل في العبادات أمام الله، وأنزلها منزلة كريمة وانصفها انصافاً لم تعهده ابداً من قبل.

فالإسلام بشرعه الحنيف رفع عن المرأة الغبن والجور اللذين الحقهما بها أهل الكهنوت وأضرابهم؛ فهي كأي إنسان ولد على الفطرة، بريئة عفيفة نظيفة القلب واللسان

وطاهرة الذيل. . . وبكلمة برّأها الإسلام من معاناتها التي سببتها لها اليهودية والمسيحية وأثّرتا على واقع حياتها تأثيراً كبيراً كما رأينا سابقاً. وقد اتضح موقف الإسلام جلياً في معالجة القرآن الكريم لمسألتي العهود الغابرة:

١ ـ «حواء والخطيئة».

٢ ـ «ماهية حواء وجنسها بالقياس إلى آدم».

لم يكن هذا الموقف الجديد الذي دعا إليه سيدنا محمد ﷺ، مجرد تعاليم أخلاقية، أو نصائح أدبية، وإنما كان تشريعاً دينياً إلهياً ملزماً للمسلمين كافة يسيرون على نهجه، ويعملون بموجبه، إذ أُنزل في آيات القرآن الكريم البينات، كما أن الأحاديث النبوية الصحيحة فسرته، فتحددت بذلك المسوؤليات، وتعيّنت الحقوق لكل من المرأة والرجل على السواء. وبناء عليه، اتضح جلياً موقف الدين الإسلامي من هاتين النقطتين وتحدد وضع المرأة الحضاري والإنساني والحقوقي من أساسه. فلننظر باديء بدء في آي القرآن الكريم في المسألة المتعلقة في البحث الأول:

«المرأة والخطيئة»

إن الحديث عن آدم وحواء والشجرة التي ينبغي عدم الإقتراب منها، جاء ضمن آيات محكمات وردت في سور

ثلاث، ألا وهي: «البقرة»، و «الأعراف» و «طه»، آيات أبرزت تصور قصة كاملة، شائقة بأحداثها، حافلة بمعطيات الإثارة في كل جزء من جزئياتها، وغنيّة بأبعادها وتصوراتها لسلوك الإنسان في هذه الدنيا.

وإنّ فصول هذه القصة، وإن كانت مجالاً خصباً لدراسات كثيرة في مواضيع متعددة تتناول أفكاراً دينية شتّى، إلاّ أن ما يعنينا منها في هذا المقام، هو ذكر الآيات التي تتعلق فقط بموضوع آدم وحواء وأكلهما من الشجرة المحظورة لنستنتج منها التصوّر القرآني في مدى تحمّل حواء مسؤولية الأكل من تلك الشجرة المحرّمة وفيما إذا كان أكلها منها مجرد معصية قابلة للتوبة والغفران أم أنها خطيئة يتوارثها الأبناء عن الآباء وتتحمل حواء وحدها وزرها كما جاء في التوراة والإنجيل على السواء.

أولاً: جاء في سورة «البقرة»، قوله تعالى[1]:

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ[2]، فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ﴿فَأَزَلَّهُمَا

---

(١) سورة البقرة: ٢، آية: ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) كانت هذه الشجرة في سفر التكوين شجرة الخير والشر. أما القرآن الكريم فإنه لم يتعرض لبيان نوعها. ولكن الإشارة توضح أنها كانت معروفة النوع لآدم لقوله تعالى: ﴿هذه الشجرة﴾ أما إبليس فقد أراد وصفها في سورة طه آية ١٢ على أنها «شجرة الخلد =

ٱلشَّيۡطَٰنُ[1] عَنۡهَا[2]، فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ[3]، وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ[4] بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ[5] وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ[6] وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ[7]﴾

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ[8] فَتَابَ عَلَيۡهِۚ[9] إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ

= وملك لا يبلى». ومع هذا، فقد ذهب المفسرون «ـ كما جاء في تفسير الطبري ـ في الحديث عن نوعها مذاهب شتى هي «السنبلة»... كما يروى عن ابن عباس، وهي «الكرمة» عن ابن مسعود والسدِّي، و «التينة» عن ابن جريج. وهي «شجرة الكافور» عن علي بن أبي طالب. وهي شجرة «العلم»: الخير والشر، عن ابن الكلبي، وهي شجرة «الخلد»، عن ابن جدعان... إلخ.

(١) فازلهما الشيطان: أزل من الزلّة وهي الإثم، أي أوقعهما فيها.

(٢) عنها: أي أصدر الشيطان زلتهما عنها أي بسببها يعني الشجرة.

(٣) فأخرجهما مما هما فيه: أي من النعيم والكرامة. وإنما نسب ذلك إلى الشيطان لأنه هو الذي تولى إغواء آدم حتى أكل من الشجرة بوسوسته وادعائه أنها شجرة الخلد وملك لا يبلى فأمرهما الله من الخروج من الجنة.

(٤) وقلنا اهبطوا: أمرٌ لآدم وحواء وإبليس بالخروج من الجنة العالية إلى الأرض.

(٥) بعضكم لبعض عدو: أي تعادي ذرية آدم بعضها بعضاً.

(٦) ولكم في الأرض مستقر: مستقر أي موضع الاستقرار.

(٧) ومتاع إلى حين: ما يستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها مما تخرج الأرض. إلى حين، إلى قيام الساعة، على أحد الأقوال.

(٨) فتلقى آدم من ربه كلمات: هي قول آدم وحواء: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين». إذ ألهمهما الله أن يقولاها.

(٩) فتاب عليه: أي رجع عليه بالرحمة، فقبل توبته.

ٱلرَّحِيمُ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى [1] فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [2]﴾.

ثانياً: وجاء في سورة الأعراف قوله تعالى[3]:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ[4] لِيُبْدِىَ لَهُمَا [5] مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا [6]، وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ [7] إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا

---

(١) فإما يأتينكم مني هدى: الهدى كتاب الله الذي يبين الحق.

(٢) فمن تبع هداي: أي قبل كتاب الله وعمل به فلا خوف عليه ولا يخشى ولا يحزن.
«زيدة التفسير من فتح القدير».
لصاحبه: محمد سليمان عبد الله الأشقر. وهو من مختصر تفسير الإمام الشوكاني المسمى «فتح القدير الجامع بين فنيّ الدراية والرواية من علم التفسير».

(٣) القرآن الكريم سورة الأعراف: ٧ ـ رقم الآيات: ١٩ ـ ٢٣.

(٤) فوسوس لهما الشيطان: أي حدّثهما بصوتٍ خفي.

(٥) ليبدي لهما: ليظهر لهما.

(٦) ما وُري عنهما: ما ستر وغُطيَ من عوراتهما إذ أراد الشيطان أن يسؤهما بظهور ما كان مستوراً من عوراتهما لأنها كانا لا يريان عورة أنفسهما، ولا يراها أحدهما من الآخر.

(٧) أي أقسم لهما على المناصحة فصدقه كل من آدم وحواء ولم يخطر ببالهما أنه كاذب مضل.

بِغُرُورٍ (١) فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ (٢) وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثالثاً: وجاء في سورة طه قوله تعالى[٣]:

وأما في سورة «طه» فلقد أطلعنا الله عز وجل على حيل الشيطان لإغراء آدم، والعقاب الذي أنزله الله على آدم وحواء والشيطان وخروجهم من الجنة إذ يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ (٤) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ

---

(١) فدلاّهما بغرور: التدلية والادلاء: إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. والمعنى أنه اهبطهما بذلك من الرتبة العلية وهي رتبة الطاعة والكرامة بما خدعهما من اليمين الكاذبة. والغرور هو إظهار النصح مع إبطان الغش.

(٢) وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة أي أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها طبقة فوق طبقة.

(٣) القرآن الكريم، سورة «طه»: ٢٠ ـ رقم الآيات: ١١٥ ـ ١٢٤.

(٤) ولم نجد له عزما: العزم في اللغة: توطين النفس على الفعل والتصميم عليه والمضي على المعتقد في أي شيء كان. وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على ألاّ يأكل من الشجرة وصمّم على ذلك. فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته، وفتر عزمه، وأدركه ضعف البشر فلم يصبر عن أكل الشجرة.

إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾[1] وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾[2] ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾[3] قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ[4] فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾[5] ﴾.

---

(١) إن لك ألاّ تجوع ولا تعرى: أي إنّ لك في الجنة تمتعاً بأنواع المعاش. وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية.

(٢) وعصى آدم ربه فغوى: أي عصاه بالأكل من الشجر فضلّ عن الصواب.

(٣) ثم اجتباه ربه فتاب عليه: أي اصطفاه وقرّبه بعد أن تاب من المعصية واستغفر ربه منها وأعلن أنه قد ظلم نفسه فتاب من معصيته وهداه ربه إلى التوبة.

(٤) بعضكم لبعض عدو: أي بعضكم يا معشر البشر في الدنيا عدو لبعض في أمر المعاش ونحوه، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام.

(٥) فإمّا يأتينكم مني هدى: أي بإرسال الرسل وإنزال الكتب. فمن اتبع هداي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ومن أعرض عن ذكري أي عن ديني وتلاوة كتابي والعمل بما فيه فإن له في هذه الدنيا عيشاً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى أي مسلوب النظر.

هذه هي قصة آدم وحواء والشجرة المحظورة كما وردت في القرآن الكريم وهي ضمن البنية القصصية إذ نجد فيها أربعة مشاهد:

١ ـ يقوم المشهد الأول على امتنان الله عز وجل على آدم وحواء بجنة الخلد[1] التي لا جوع فيها ولا عطش ولا عراء.

٢ ـ ويقوم المشهد الثاني على وسوسة الشيطان وإغرائه لهما بجنة الخلد ومُلْكٍ لا يبلى.

٣ ـ وأما المشهد الثالث فإنه يقوم على عقاب الله لآدم وحواء بالهبوط من الجنة وإسكانهما الأرض بعد أن عصى آدم ربه فغوى.

٤ ـ وأما المشهد الأخير فإنه يقوم على عمارة الكون بذرية آدم وحواء وتحذير الله لهم من وسوسة الشيطان المستمر للإنسان فيه.

---

(١) ذكر الطباطبائي في «الميزان في تفسير القرآن ج: ٨ .ص: ٣٩.
بأنّ الجنة التي ذكرت في القرآن الكريم، ليست الجنة المقابلة للنار وإنما هي جنينة أرضية وفّر الله فيها لآدم وحواء كل وسائل الاستقرار وكفل لهما كل الحاجات، كما في قوله تعالى:
﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ طه: ٢٠ ـ آية: ١١٨.

أما كُنْهُ هذه المشاهد فقوامه على أمر الله سبحانه وتعالى لآدم وحواء أن يسكنا الجنة وقد أباح لهما فيها أن يأكلا من أي نوع من ثمارها إلا مِنْ ثمار «هذه الشجرة» التي أشار الله إليها إذ نهاهما عن الأكل منها. لكن الشيطان ما لبث أن زيّن لهما مخالفة أمر ربهما، وما فتىء يغريهما بمختلف أنواع المغريات ليأكلا منها، موسوساً لهما بأن الله لم ينههما عنها إلاّ كراهة أن يصيرا مَلَكين أو أن يكونا من الخالدين في الجنة. وحلف لهما أنه ناصح لهما فيما رغّبهما فيه من الأكل من الشجرة. ثم ما زال يخدعهما بالوعد وبالقسم المغلظ أنه مخلص ناصح أمين لهما حتى نسيا موقفهما من الله عز وجل ومما أمرهما من عدم الأكل من «الشجرة» المعلومة، إذ اغترا بكلامه، وانخدعا بقسمه اعتقاداً أن أحداً لا يحلف بالله كذباً!!!

ويترتب على وسوسة الشيطان لهما أن أهبطهما الله تعالى عن المنزلة السامية التي كانا فيها لأنهما ما إن ذاقا طعم الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، حتى ظهرت لهما سوآتهما. فخجلا، وشرعا يخصفان عليهما من ورق الجنة.

لكن سرعان ما ثاب آدم إلى رشده، ونهض من عثرته، بما ركب في فطرته، ولاذ إلى ربه يستغفره طالباً عفوه فتاب عليه ربه كما تقول الآية الكريمة:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

وجدير بالذكر، أنّ حواء فعلت مثل ما فعله آدم: في الندم والتوبة، وفي طلب المغفرة من رب العالمين بعد أن عاتبهما ربهما ونبههما إلى خطئهما. وقد شملتهما معاً الرحمة والمغفرة من التوّاب الرحيم. إذا قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ولكن عقاباً لهما على المعصية التي اقترفا، وابتلاءً لهما ولذريتهما من بعدهما، خاطبهما الله تعالى مندداً إذ قال لهما:

﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ سورة طه، ٢٠ ـ الآية ١٢٣.

وهكذا بمعصية آدم وحواء، تكون التجربة البشرية الأولى قد تمّت، كما أنه بهبوطهما من الجنة، تكون كلمة الله وعهده الدائم مع آدم وحواء وذريتهما والشيطان قد تمت بإذنه تعالى لقوله:

﴿ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ سورة البقرة، ٢ ـ الآية ٣٦ .وسورة الأعراف، ٧ ـ الآية ٢٤.

أي اهبطوا جميعاً بعضكم عدو لبعضكم الآخر في الدنيا، ولكم في الأرض استقرار وتمتع إلى حين انتهاء آجالكم. ثم كرر لهم القول فقال: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ سورة الأعراف، ٢٥.

أي في الأرض تولدون وتعيشون، وفيها تموتون وتدفنون، ومنها عند البعث تخرجون للحساب ثواباً وعقاباً.

(انتهى مجتزءاً مضمون قصة آدم وحواء والشجرة المحظورة كما وردت في القرآن الكريم)[١].

وهنا يجدر التنويه إلى أنه ما من آية من الآيات المحكمات السابقات أشارت إلى ابتداء حواء باغراء آدم من الأكل من الشجرة المحظورة. غير أن بعض المفسرين المسلمين الذين شرحوا هذه الآيات، قد اعتمدوا على أقوال حفّاظ التوراة من بني إسرائيل الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. فعلى سبيل المثال روى الطبري (٣١٠هـ) عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق عن عمرو بن عبد الرحمن عن وهب بن منب الذي روى القصة لصحبه من المسلمين ـ بعد أن دخل في الإسلام ـ كما جاءت في الإصحاح الثالث من سفر التكوين على الشكل التالي:

«... لما أسكن الله تعالى آدم وزوجه الجنة، ونهاه

---

(١) محمد عبد المنعم الجمال: التفسير الفريد للقرآن المجيد.

والإمام الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فنيّ الدراية والرواية من علم التفسير وقد اختصر التفسير محمد سليمان عبد الله الأشقر. الطبعة الأولى: وزارة الأوقاف والشوؤن الإسلامية. الكويت.

عن الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلودهم، وهي الثمرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته. فلما أراد إبليس أن يستزلّهما دخل في جوف الحية، وكان للحية أربع قوائم.

فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزجتهوجاء بها إلى حواء:

فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها! فأخذت حواء فأكلت منها، ثم ذهبت بها إلى آدم.

فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! . فأكل منها آدم. فبدت لهما سوءاتهما. فدخل آدم في جوف الشجرة.

فناداه ربه: يا آدم، أين أنت؟

قال: أنا هنا يا رب.

قال: ألا تخرج؟

قال استحي منك يا رب.

قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة حتى يتحول ثمارها شوكاً!

قال ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرة كانت أفضل من الطلح والسِّدر.

ثم قال: **يا حواء، أنتِ التي غررّت عبدي، فإنك لا تحملين حَمْلاً إلا حملته كرهاً، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفتِ على الموت مراراً.**

وقال للحية: **أنتِ التي دخل الملعون في بطنك حتى غرّ عبدي، ملعونة أنت لعنة حتى تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلاّ التراب.. أنتِ عدوة بني آدم وهم اعداؤك، حيث لقيت أحداً منهم أخذتِ بعقبِه، وحيث لقيك شدّخ رأسك»**[1]. انتهى.

يلاحظ في هذه الرواية التناقض في سرد الوقائع بين ما ورد في سفر التكوين[2] على لسان آدم عليه السلام من أن المرأة التي جعلها الله معه هي التي أعطته من الشجرة فأكل منها، وبين ما جاء في رواية وهب بن منبّه إذ يقول على لسان الإله مرة: **«يا حواء أنتِ التي غررت عبدي»**. ومرة أخرى يقول تعالى للحية: **«أنت التي دخل الملعون في بطنك حتى غرّ عبدي»** وهذا القول الآخير ينفي بوضوح اغراء حواء لآدم بأكله من الشجرة المحظورة من جهة، وإن

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١/١٠٨.

(٢) سفر التكوين. الإصحاح الثالث.

يتفق في مضمونه مع ما ورد في القرآن الكريم من أن الشيطان هو الذي وسوس لآدم فغرّر به حتى وقع في المعصية.

ولكن يبقى السؤال:

ما هو الجديد في البيان القرآني إذن؟

أما الجديد في هذه القصة، كما وردت في القرآن الكريم، فإنه يكمن فيما تتضمنه الآيات البينات من الحقائق التي تكوّن الأسس الجوهرية للمعتقد الإسلامي منها مثلاً:

أولاً: **أن حواء لم تكن البادئة في الغواية**: إذ ليس في الآيات ما يشير إلى ابتداء حواء بالاغراء والمعصية كما ورد في سفر التكوين[1] أو كما ورد في العهد الجديد[2].

بل إنّ الآيات القرآنية التي ذكرناها سابقاً تظهر أن آدم هو الذي استمع أولاً إلى وسوسة الشيطان. بدليل قوله تعالى:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[3].

إذ توجّه إليه مباشرة منادياً إياه باسمه قائلاً:

﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

---

(١) العهد الجديد: رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: الإصحاح الحادي عشر، آية: ٢ ـ ٣.

(٢) العهد الجديد: رسالة بولس إلى أهل تيمثاوس، الإصحاح الثاني: آية ١٤.

(٣) سورة طه: ٢٠ ـ الآية: ١٢٠.

وما زال الشيطان يوسوس لآدم، ويزين له نعمة الخلود، ويحّبب إلى نفسه الاستئثار بمُلْك لا يَفنى ولا يزول، حتى ضعفت إرادته. وسيطرت عليه طبيعته البشرية المحبِّذة لغريزة حب البقاء. فلعب الشيطان على أوتار هذه الغريزة ونفذ إغواؤه إلى قلب آدم إذ دخل الوهم إليه بأن هذه الشجرة فيها الخلود. لكنه أخطأ الصواب حين اعتقد أن أكله من الشجرة يكسبه الخلود فلا يموت. وأخطأ ثانياً حين اعتقد أن أحداً لا يقسم بالله كذباً! وما حصل هذا إلاّ لأمر مقدور وحكمة أزلية أرادها الله تعالى حين نسي آدم عهد ربه، وأقدم على فعل المحظور لقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴿١١٥﴾﴾ طه: ٢٠ ـ ١١٥.

ولكن هل النسيان معصية حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ طه: ١٢١.

نعم إن النسيان معصية في الأمم السابقة، لذلك يقول النبي ﷺ:

«رفع عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». رواه الطبراني عن ثوبان.

وهذا القول يتفق مع قول سيدنا عيسى عليه السلام حينما نظر إلى الفريسيين الذين قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشّارين والخطاة، إذ قال عليه السلام: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى».

فاذهبوا وتعلموا ما هو.

«إني أريد رحمة لا ذبيحة لأنّي لم آتِ لأدعو أبراراً، بل خطاة، إلى التوبة» إنجيل متى: الإصحاح التاسع: ١١ ـ ١٣ ص: ١٥.

أمّا لِمَ خصّ الله عز وجل آدم بالذكر مع العلم أن آدم وحواء كلاهما قد أزلّهما الشيطان، ودلاّهما بغرور وأكلا من الشجرة، فوقعا في المعصية معاً؟ الجواب على ذلك يكمن في كون الله تبارك وتعالى قد اختار آدم ليكون خليفة على الأرض؛ فقال عزّ وجل للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. سورة البقرة: الآية ٣٠.

قالوا:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. سورة البقرة، الآية ٣٠.

﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤)﴾. سورة البقرة، ٢ ـ الآية ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤.

إن هذه الآيات القرآنية الكريمة ينبثق منها بوضوح عدة اعتبارات ذات قيمة عليا في عالمنا الإنساني؛ منها:

أ ـ قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ دلالة على استكمال التسوية والأنسنة. لأن «الجعل» هو عملية التغيير في الصيرورة. فالله بعد أن خلق بشراً من طين، نفخ فيه من روحه، أي صيّره إنساناً سوياً ذي سمع وبصر ويَدَيْنِ ورجلَيْن وعقل وإرادة وجعله في أحسن تقويم ليكون خليفة على الأرض، لهذا كله خصه الله تبارك وتعالى بتلك النفحة الروحية، ثم إنه فضله على سائر المخلوقات، بعد أن سوّاه وعدله. وميّزه بطاقات وقدرات، وعلّمه الأسماء كلها بالمطلق ليستوعب أنواع المعرفة الشاملة لكل الحقائق ومنحه فطرة خاصة طيبة وموهبة وقدرة على الإكتشاف والاختراع وعلى وضع الأسماء والمصطلحات لكل جديد في كل عصر وجيل.

عندئذ طلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يقعوا له ساجدين. فقال عز من قائل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

ب ـ وأما استيضاح الملائكة والاستفسار عن سر هذا الاستخلاف رغم أن آدم يفسد ويسفك الدماء فإنما هو ـ

---

(١) القرآن الكريم. سورة الحجر. آية: ٢٩.

كما يفسره «ابن كثير» ـ «سؤال واستعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك. فيقول لهم رب العالمين: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف من المخلوقات على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم. وإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل الرسل فيهم ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعبّاد والزهّاد والأولياء والمقربون والعلماء والعاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى والمتبعون رسله صلوات الله عليهم أجمعين»[١].

ج ـ وأما الحكمة من هذا الاستخلاف برغم استعداد جنس «آدم» للفساد وسفك الدماء، فهي تلمّح إلى الطبيعة البشرية الكامنة المزدوجة لدى الإنسان؛ والتي تظل في صراع بين الخير والشر، وبين الكفر والإيمان بالله حتى يؤدي الإنسان وظيفة استخلافه على الأرض خير استخلاف بتعقل وإرادة. فعلى هذا الإنسان إذن، واجب تأدية الاستخلاف والوفاء بالعهد على أكمل وجه. وهذا ما لم يفعله آدم إذ ضلّ عن الصواب ونسي العهد لحكمة مقدورة من رب العالمين فأقدم على فعل المحظور ووقع في المعصية ولكنها معصية قابلة للتسوية والمغفرة إذ استطاعت

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ الآية: ٣٠ من سورة البقرة.

هذه المعصية أن تحدث في نفسه أكمل هزّة عنيفة، وأن تفجرّ في أعماقه الإحساس بالمسوؤلية من خلال مشاعر الندم، وطفق آدم يخصف على جسده من ورق الجنة ليواري سوأته ويستغفر ربه لذنبه، ويناجيه حتى تاب عليه التوّاب الرحيم.

د ـ إن الأمر بالنهي عن الأكل من «هذه الشجرة» يعتبر أول تكليف وأول نهي وجه إلى أبي البشرية ترويضاً للإنسان «الخليفة» على أن يتحكم في نزواته ويكتفي من الاستمتاع بطيبات الدنيا بالحدود المعقولة من الإشباع الكريم. ولا ينساق مع الحرص المحموم على المزيد من زينة الدنيا ومتعها وطيباتها. لأن هذا الحرص هو الأساس لكل ما يشهده المسرح الإنساني بعد ذلك من ألوان استغلال الإنسان لأخيه الإنسان[1].

هـ ـ وأما ثناء الله على نفسه في ختام هذ الحوار بقوله تعالى:

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ما هو إلاّ تعليل لقدرة الخالق العظيم في إبداع ما يخلق، وأنه هو علاّم الغيوب يعلم ما يبدي الإنسان وما يخفي، وأنّه على كل شيء قدير. ولعل هذا الحمد لله تعالى والإشادة بذكره العلية هي الفيصل وحدٌّ لكبرياء الإنسان، وتخفيفاً لغلوائه، إذ

---

(١) محمد عبد الجبار. المجتمع ص: ٤٦ دار الأضواء ـ بيروت ـ لبنان.

خلق الله الإنسان ضعيفاً وخلقه جهولاً أي أنه مهما بلغ من العلم فلن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً، إنه نزر قليل إزاء علم الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: وزر مأكل آدم من الشجرة:

ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى لم يحمّل آدم وحده وزر الأكل من الشجرة فهو مشترك على قدم المساواة بين آدم وحواء؛ فكلاهما سواء في النهي والزجر، أم في الفعل بدليل توجيه الله عزّ وجل الخطاب إليها وإلى آدم معاً بضمير واحد ليشعرنا بتمام التلازم في التكليف إذ قال لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. إذن، أكلت حواء من الشجرة كما أكل آدم، وقد نهيت عن الأكل من الشجرة كما نهي آدم!! ووقعت في المعصية كما وقع هو! لذلك حق عليهما القصاص فعاقبهما الله معاً إذ تبدّت لهما سؤآتهما بعد أن كانت مستورة. وأخذا يخصفان عليهما معاً من ورق الجنة حتى يستراها!! ولكن سرعان ما ثابا إلى رشدهما، ووعيا فظاعة عملهما، فندما على فعلتهما.

وبادر آدم أولاً بالاستغفار، نادماً وملتمساً التوبة عن ذنبه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ سورة طه: ١٢٢.

---

(١) القرآن الكريم. سورة البقرة: آية: ٣٥.

وقوله عز وجل ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لآدم بكلمات يتقرب بها إليه فيتوب الله عليه وقد بشّره سبحانه بأنه سيقبل هذه التوبة بقوله: «إنه هو التواب الرحيم».

والأجمل من هذا أن حواء مالبثت أن تبعت آدم بالندم والتوبة والتماس العفو. وهذا يعني في عرف العقيدة الإسلامية، أن الاثم مسألة فردية ذاتية. وكذلك التوبة. وأنه وإن كان بعض المفسرين قد ظنوا أن توبة آدم قد شملت حواء لاعتقادهم أنها «تِبْعاً له»[1]، إلاّ أن القرآن الكريم قد بيّن لنا أن كلاً من آدم وحواء شخصية مستقلة عن الأخرى، ومسوؤلة بذاتها عمّا تفعل. لذا ذكر الله آدم وسمّاه باسمه ثم عطف عليه بحرف الواو ذكر حواء بقوله تعالى:

﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. سورة البقرة، الآية ٣٥، والمعنى نفسه بالتمام وارد أيضاً في سورة الأعراف، الآية ١٩.

وهكذا أوضح لنا القرآن الكريم أن حواء لم تكتف بتوبة آدم ومغفرة الله له، إنما سارعت هي الأخرى إلى الاستغفار ـ وقد

---

(١) النسفي الإمام عبد الله: مدارك التزيل ومحاسن التأويل. جزء: ١ ـ ص: ٤٤.

ثابت إلى رشدها ـ فشاركت آدم في التوسل والابتهال. وانطلق الاثنان معاً يناجيان ربهما كما جاء في الآية الكريمة:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ سورة الأعراف، الآية ٢٣..

نلاحظ أن مناجاة آدم وحواء للعزة الإليهة، قد جرت بضمير المثنى لتشعرنا في آن واحد بتمام التلازم والمساواة وإن هي مسؤولية ذاتية قبل كل شيء. لذلك شملهما الله معاً في الخطاب أمراً ونهياً كما يظهر ذلك جلياً في مفردات الآية الكريمة الآتية:

«وناداهما ربهما ـ فكُلا ـ شئتما ـ لا تقربا ـ ألم أنهكما ـ وأقل لكما ـ إن الشيطان لكما عدو مبين».

فهذا التلازم القرآني بالنداء والأمر والنهي يُعفي حواء من انفرادها بارتكاب الإثم، كما أنه يؤكد أنها لم تُقدم على فعلتها منفردة؛ وهذا إثبات قاطع وتأكيد صريح بعدم تحمل حواء كل الوزر كما جاء من قبل على لسان رجال اليهودية والكنيسة بل إن آدم وحواء هما على قدم المساواة في الاشتراك بمسؤولية الذنب والمعصية؛ فالشيطان الرجيم «وسوس لهما» أي لآدم وحواء على السواء لذا اشتركا في الدعاء والصلاة والابتهال إلى الله تعالى كي يغفر لهما لأنهما شعرا بأنهما ظلما نفسيهما بمعصية الخالق. فقالا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثالثاً: الأكل من «هذه الشجرة» إثم وليست خطيئة:

إن الآية الكريمة السابقة تبرز لنا قاعدة إسلامية ثابتة قوامها العفو والمغفرة من أي ذنب يرتكبه المسلم شريطة أن يقرن بتوبة نصوح. تتضح بالمطلق في القرآن الكريم سورة «التوبة» هذا فضلاً عن ترداد هذه اللفظة بأخريات من مستلزماتها أمثال:

غفر[1] - وعفا[2] - ورحم[3]، ومشتقاتها مصداقاً لوصفه نفسه عز وجل بأنه هو: ﴿الرحمن الرحيم﴾ و ﴿التواب الرحيم﴾، وهو ﴿الغفور الرحيم﴾ و ﴿الرؤوف الرحيم﴾ و ﴿الودود الرحيم﴾.

من هذه الآيات مثلاً قوله عز وجل:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة الأنعام، ٦ ـ الآية ٥٤.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)﴾ سورة الأعراف، ٧ ـ الآية ١٥٣.

---

(١) وردت هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من ٢٣٦ مرة.
(٢) وردت هذه الكلمة ومشتقاتها أكثر من ٣٥ مرة.
(٣) وردت هذه اللفظة أكثر من ٣٠٠ مرة. راجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ سورة الأنفال، ٨ ـ الآية ٣٣.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ سورة طه، ٢٠ ـ الآية ٨٢.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ سورة الزمر، ٣٩ ـ الآية ٥٣.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ سورة الشورى، ٤٢ ـ الآية ٢٥.

نستنتج من هذه الآيات أنه كان لا بد بعد أن وقعت المعصية، أن يُشَرّع الله تعالى التوبة رحمة بعباده. ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصي وحده، ولكنه رحمة بالمجتمع كله. فالإنسان إذا عصى وعرف أنه لا توبة له، وأنه محكوم عليه بالخلود في النار، فإنه يتمادى في إجرامه.

لذلك لا يسمي علماء المسلمين هذه التجربة التي أصْلَت نارها كلٌ من آدم وحواء «خطيئة» كما يسميها أصحاب التوراة والإنجيل، بل يسمونها معصية وإن تبعها هدى؛ كما جاء في القرآن الكريم. وإن هذه التجربة وما أثارته من معصية، يعتبرها الإسلام نعمة بدل أن تكون نقمة، لأنها تمثل التجربة الأولى للإنسان في بداية سيرته

على الأرض من خلال ممارسته أعباء الخلافة. كما أنها تمثل الفترة الضرورية للإنسان في تربية إحساسه الخلقي، وزرع الشعور بالمسؤولية وذلك عن طريق امتحانه بما يُعهد إليه من تكاليف وأوامر مفروضة.

إن هذه التجربة الآدمية هي مدعاة إذن لذرية آدم من بعده كي يفكروا دائماً فيما خصهم عز وجل من تكليف ومسوؤلية، لأنها بالتالي تمثل المثل الأصلح كي يتعلم الإنسان منذ البدء أن الحياة الدنيا ليست نعيماً دائماً، وليست شقاءً دائماً. وأَن الإنسان يسعد فيها ويشقى إذ يتعرض لتجارب كثيرة قد يصيب فيها مرة، وقد يخطىء مرّات. فإن أصاب فخيراً يفعل؛ وإن أخطأ فإنه واجد دائماً رباً غفوراً رحيماً إن تاب توبة صادقة خالصة. لذلك كانت المعصية الأولى في نظر الفلاسفة المسلمين «**أول فعل للإنسان تتمثل فيه تجربة حرية الاختيار**. وحرية الاختيار تتضمن حرية **عمل الخير** الذي خلقه الله وأحبّه وارتضاه لعباده. كما تتضمن حرية **عمل الشر** الذي خلقه الله كذلك ولكن لم يرده الله لعباده»[1] وقد اعتمدوا في ذلك على مدلول بعض دسائس أهل الكتاب والمنافقين الواردة في بعض آي الذكر الحكيم، وفحواها أن السعد واليمن هو من

---

(١) محمد إقبال. تاريخ الفكر الديني في الإسلام. ص ٩٩.

عند الله عز وجل وأن الشؤم وغراب البين من عند رسول الله ﷺ؛ لقد خسئوا إذ أبطل الله سبحانه دسّهم وزعمهم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾[1] صدق الله العظيم.

وهذا يعني أنّ ما يصيب الإنسان المكلف من حسنة فبفضل من الله سبحانه وتعالى وبتيسير منه لأسبابها كي يأتيها بملء إرادته، وبالمقابل فما يقترف هذا الإنسان من سوء، فبما اكتسبت يداه بملء إرادته أيضاً.

وعليه، فلما كان الله سبحانه وتعالى وهو الوهاب لكثير من الأشياء النافعة للمرء، وهو الذي أمره أن يوجهها في الخير، وبالتالي فإن ما يصيبه من خير يكون من فضل الله. وأمّا إذا ما انحرف بها إلى الشر صحّ أن يقال إن هذا الشر هو من عند ذات المرء ونفسه، أوجده الله سبحانه ابتلاءً للعباد لكي يحمل كلٌّ طائره في عنقه ويكون على نفسه شهيداً.

«لذا شكلت المعصية الأولى، في نظر المسلمين، إمتحاناً معيناً بكل معنى الكلمة وقد ابتلى به الإنسان، لا لتودي به إلى التهلكة، ولكن لكي تنمّي مداركه العقلية، وتحثه إلى أن يرتفع

---

(١) القرآن الكريم: سورة النساء: ٤ ـ آية: ٧٨ ـ ٧٩.

إلى أعلى عليين بدل أن يرتد إلى أسفل سافلين»[1] تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى قد خلقنا إذن مختارين، إذ جعل لنا طاقة تستطيع أن تعصي وأن تطيع. وما دام هنالك إختيار، فالإنسان يختار هذه أو تلك مع العلم أن العبد ليس مخلوقاً لكي يختار خيراً مطلقاً، أو كي يختار شراً مطلقاً. ولذلك فأحياناً ننسى أو نسهو، أو نعصي. وبالتالي، مادام العبد معرّضاً للخطيئة، فالله سبحانه وتعالى شرع التوبة، حتى لا ييأس العبد من رحمة الله، ويتوب توبة نصوحاً وليرجع إلى الله عزوجل.

من هنا كانت الحكمة المقدورة في أن ينسى آدم وأن يخطىء، وأن يعلمه الله تعالى كلمات التوبة حتى يتوب وهكذا تاب آدم وتابت حواء، وقد تقبّل الله توبتهما.

رابعاً: المعصية فردية ذاتية فقط:

وهذا يعني أن التوبة النصوح في نظر العقيدة الإسلامية هي السبيل الوحيد للتكفير عن الذنوب والآثام التي يرتكبها الإنسان، وإنها بالتالي مسؤولية فردية يجب أن تنبعث من نفس العاصي إذ كلٌ مسؤول عما يفعل ويُحاسَب عمّا يعمل

---

(١) نفس المرجع السابق. محمد إقبال. ص ٩٩.

(٢) القرآن الكريم: سورة الأنبياء: ٢١ ـ آية: ٣٥.

ويُوفى جزاءه بمقدار ما عمل وفعل مصداقاً لقوله تعالى:

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ سورة النجم، ٥٣ ـ الآية ٣٨ ـ ٤١.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ سورة الإسراء، ١٧ ـ الآية ١٣ ـ ١٥.

ولقد أوضح عز وجل معاني هذه الآيات بأن ضرب لنا أمثلة عديدة في القرآن الكريم؛ منها مثل نساء كافرات، لأنبياء صالحين، ساء سلوكهن مع أزواجهن كامرأتيْ النبيَّيين الصالحين نوح ولوط عليهما السلام. إذ كفرتا بنبوّة زوجيهما ولم تستجيبا لدعوة الحق فأعانتا الظالمين على ظلمهم. فتوعدهما ربهما ولم تسلما من سوء العاقبة رغم كونهما زوجيْ لنبييّن من أنبياء الله الصالحين. يقول سبحانه:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[1].

---

(١) القرآن الكريم. سورة التحريم: ٦٦ ـ آية: ١٠.

كذلك ضرب لنا أمثلة لنساء مؤمنات، وإن هن زوجات لرجال كافرين، كأمرأة فرعون التي تضرعت إلى الله سبحانه وتعالى بأن يصونها ويحفظها من ظلم زوجها وكفره؛ إذ جاء في القرآن الكريم:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

والله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً إلاّ أن يُشرَك به لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2].

وقوله جل وعلا:

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وأخيراً إن جزئيات قصة آدم وحواء العلوية إضافة إلى دقائقها المعنوية والنفسية والدينية المتصلة بها وصولاً إلى الهبوط إلى الأرض، تشكل في القرآن الكريم، كلاً متماسكاً ذي خلاصة متشعبة؛ منها:

---

(١) القرآن الكريم. سورة التحريم: ٦٦ ـ آية: ١١.
(٢) القرآن الكريم: سورة النساء: ٤ ـ آية: ٤٨ و ١١٦.
(٣) القرآن الكريم سورة لقمان: ٣١ ـ آية: ١٣.

أ ـ التوبة من الذنب:

إن الأكل من الشجرة المحظورة لا يُعتبرْ في الإسلام «خطيئة» بل هو مجرد «معصية» قابلة للتوبة والمغفرة وهي بالتالي لا تشكل أبداً «خطيئة متوارثة» في الأجيال ـ كما هو الحال في اليهودية والنصرانية ـ طالما أعقبها هدي، ولكنها معصية تمثل التجربة الأولى للإنسان بجميع فصولها التي مرّ بها كل من آدم وحواء. وإن هذه التجربة كما يراها المفسرون المسلمون «تمثل استعداد الفطرة البشرية وما يعرض لها من مواضع الكمال بإغواء عدوّ البشر: الشيطان ويليه ما يترتب عليه من الهداية والإرشاد إلى ما يَتَّقي به ذلك الأغواء والفساد[1].

ب ـ شمولية التجربة:

طالما أن آدم وحواء هما أبوا البشرية، فإن هذه التجربة تمثل تجربة كل فرد من ذريتهما وهي التي ما زالت تتكرر وتتجدد مع خلق كل آدمي يدب على وجه الأرض، بعد أن أمرهما الله تعالى بالخروج من الجنة في قوله تعالى:

---

(١) محمد رشيد رضا: التفسير المختصر للقرآن المجيد، مختصر تفسير المنار، الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤، الجزء الثالث، ص ١٠.

﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

ج - عوامل الإثم المقترف النفسية:

إنّ هذا النداء الذي تلقّاه آدم وحواء من ربّهما، وما تضمن من نهي عن الاقتراب من «هذه الشجرة»، والحوار النفسي الذاتي الداخلي والحوار النفسي الذاتي الخارجي (لتدخل الشيطان)، كل ذلك يظهر أن هناك بنية للإثم، ولذا تمّ اعتراف كل منهما أنهما ظلما نفسيهما، إذ راودتهما فكرة المعصية وتردّدا بالقيام بها فتكون هذه المعصية إذن قد ارتكبت بعد صراع نفسي لأنها صادرة عن طبيعة بشرية تجلّت في سلوك كلٍ منهما. هذا السلوك القائم في جوهره على حرية العمل في إرتكاب الخطأ والصواب.

هذا وإن نهي الله لآدم عن الإقتراب من «الشجرة»، إنما كان ابتلاء من الله لعزيمته وامتحاناً لإرادته البشرية أمام الإغراء وحب الاستطلاع، كما تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

ومن ناحية ثانية، تبين هذه التجربة غريزة حب

---

(١) القرآن الكريم. سورة البقرة: آية: ٣٦.

الاستطلاع وهي غريزة قوية متحكّمة في طفولة الإنسانية، بل إن هذه الطفولة كلّها متغلغلة في نفس كيان آدم. وقد حللّ «الخطيب» هذا الرأي، قائلاً:

«إن هذا النهي الذي تلقّاه آدم عن الاقتراب من الشجرة قد مس شغاف آدم في موقعين:

موقع الخشية من الله عز وجل الذي وجه إليه النهي، والحذر من مخالفة أمره، **والرغبة الصارخة** في بلوغ هذه الشجرة واستبانة أمرها والكشف عن كنهها. وفوق ذلك كله كانت وسوسة إبليس لآدم، وإغراؤه له، الأمر الذي حث خطى آدم إلى الشجرة، ودفعه دفعاً حثيثاً إليها. ولو لم يكن إبليس يستحث آدم استحثاثاً على الدنو من الشجرة، لسارَ هو (أي آدم) وحده إليها، ولبلغها، ولأكل منها... ولكن بعد مضي زمن متراخ من ذاك الوقت الذي امضاه بالفعل لبلوغ الشجرة والأكل منها»[1].

د ـ براءة الإنسان المسلم من كل وزر مقترف..

إن الإنسان، ذكراً كان أو أنثى، هو مخلوق مكلّف ومسؤول، تلك هي بكلمة سيرة هذا الكائن كما وردت في

(١) الخطيب عبد الكريم مصطفى. القصص القرآني. مطبعة السنة المحمدية. القاهرة ١٩٦٤ ص ٤١٨.

القرآن الكريم من خلال قصة آدم وحواء. لكن هذا الإنسان قد حباه الله تعالى من سائر مخلوقاته بالعقل والإدراك والتفكير، كما منحه حرية العقل والإرادة. وبذلك تحرر «الإنسان المسلم» من عبء أي وزر مفروض أو موروث كما يقول غير المسلمين، كما أنه أمّل بالعيش الرغيد الهنيىء في محياه، وبالسعادة الأبدية بعد مماته، إذا هو سار على هدى من ربه وسلك طريق الرشاد الذي اختطته الآيات القرآنية الكريمة وحث على اتباعها الدين الحنيف، عملاً بالآية الكريمة التي اختتمت بها قصة آدم وحواء:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1] سورة طه، الآيتان ١٢٣ ـ ١٢٤.



(١) القرآن الكريم. سورة طه: ٢٠ ـ آية: ١٢٣.

المسألة الثانية: حوّاء وجنسها في التّصوُّر الإسلامي

ونقف مرة ثانية أمام قضية أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، بل ربما تفوقها خطورة لأنها تتعلق بماهية حواء نوعاً وتكويناً، فهل هي من ضلع آدم؟ أم هي ذات جنس آخر؟ وهل هي تنعم بروح ونفس على غراره، أم أنها تفتقر إلى كل ذلك؟.

اسئلة تترى تتوارد فتربك وتحيِّر المرء فيلتمس لذلك الجواب المقنع ويسعى إليه من بطون الكتب وعند العلماء قديمهم وحديثهم... وقد نسي أو تناسى أن القرآن الكريم قد تناول قبل كل مخطوط ومكتوب موضوع نشأة الإنسان الأولى.

ضمن آيات كثيرة تأتي في مطلعها تلك الآية التي يخاطب الله بها الناس جميعاً؛ إنها وهي آية قرآنية كريمة كافية شافية، يقول سبحانه وتعالى في سورة النساء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ صدق الله العظيم.

هذه الآية الكريمة تشير إلى ثلاثة محاور رئيسة هي:

١ ـ ماهية النفس الواحدة.

٢ ـ خلق الزوج من هذه النفس.

٣ ـ ثم خلق وبث الرجال الكثر والنساء من ذاك الزوج.

هذه الآية تطرقت مباشرة إلى صميم الموضوع ولبه فعالجت التساؤلات المطروحة كاشفة عن أحكام قاطعة في هذا الشأن وذاك.

المحور الأول: ماهية النفس الواحدة:

لغوياً، يفيد لفظ «نفس» أنه مرادف للفظ «عين»؛ من هنا جاء قولهم: «جاء فلان نفسه أو عينه». لذا، إن نفس الإنسان هو ذاته بكل معنى الكلمة، مكوّناته الجسمية ومادته السنجابية فضلاً عن الروحية.

إن مراد الآية الكريمة، من تعبير «النفس الواحدة» في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1] إنما هو وحدة المكونات وتماثلها بين بني البشر ذكوراً وإناثاً، وإن كانت تعني آدم كما ورد في بعض صفحات كتب تفسير القرآن الكريم، أعني تفسير القرطبي.

١ ـ أصل الإنسان الأول:

من هو آدم؟ ومتى ظهر إلى الوجود؟ وما هو كنهه؟ تلك اسئلة ما زالت تستحوذ على أفكار الدارس وتشغل

---

(١) القرآن الكريم. سورة النساء: ٤ ـ آية: ١.

بالهم، عامتهم وخاصتهم لا سيما الفلاسفة وعلماء العصر فضلاً عن الكهنوت والأحبار.

إن نشأة الإنسان سر أحاطت به تصورات عديدة، اثبتت شتى الإجابات الكثيرة، أنها جاءت متباينة فيما بينها، ومختلفة في عرضها ووصفها وفقاً لمستوى الجهة أو الطرف التي انبثقت منها. فهناك مناظير فوقية كالعقائد والآراء النيرة والنظريات المستحدثة في كل مصر وعصر، وهناك أيضاً مفاهيم دونية ملائمة للقصص الشعبية الخرافية والأساطير الوهمية التي نسجتها خاصة عقول عامة الناس حتى كاد أن لا يخلو مجتمع من قصة حول خلق آدم وحَوّاء. وفي كل بيئة تصور ما، يختلف عن غيره مما جاء في سائر المجتمعات، وذلك تبعاً للأهواء والأحكام التي كانت تُحاك منها هذه الصور لآدم أبي البشر وزوجه حواء على السواء.

غير أنّ التعرض لمختلف هذه الهواجس والآراء، والبحث في كيفية «النشأة الأولى للإنسان» ليس أصلاً من خصائص هذا المبحث، خاصة وإنه موضوع ما زال حتى الساعة يستقطب عقول علماء العصر في جميع المجالات: من علم الحياة، إلى علم الأجناس والأنواع، ومن علم الوراثة والبيولوجيا، إلى علميّ الآثار والجيولوجيا، ومن علم الحيوان وعلم الفلك، إلى علم الإنسان ومكانته من الطبيعة. هذا الإقحام العلمي الذي لا مثيل له، يقابله في الطرف الآخر، مباريات طموحة أبطالها الفلاسفة وعلماء

النفس والأخلاق واللاهوتيين. وقامت المساجلات والمناظرات فيما بينهم حتى بات القرن العشرون، منذ مطلعه تقريباً، مسرحاً خصباً لمختلف الآراء والمذاهب، وانقلب إلى ميدان معركة احتدم فيه الصراع حول **«أصل الإنسان الأول»**، بين اللاهوتيين من جهة، وبين رجال العلم من جهة ثانية. وفيما يلي لوحة اجمالية شاملة للجدال القائم حول الخليقة الأولى على صعد ثلاثة مفردة، لكل منها تصورها الخاص بها.

أ ـ صورة آدم في الميزان المعنوي وفي الميزان المادي:

أ ـ في نظر اللاهوتيين:

لقد شدد هؤلا على حرفية النص التوراتي القائل بأن صورة الإنسان ترقى إلى الذات الفلسفية الجوهر، فضلاً عن أن آدم نفس «حية» معتمدين في ذلك على أكثر من عبارة منها ما ورد في سفر التكوين[1]، ومنها ما ورد في دائرة المعارف حيث ذكرت:

«وإن الرب الإله جعل آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفساً حيّة، دون أن يطرأ عليها أي تطور أو تغيير. بل هي عطف خاص من لدن الله

---

(١) التوراة: سفر التكوين، الإصحاح الثاني، ٧ ـ ٨.

الذي أقام آدم على رأس هذه الكائنات الحيّة: الحيوانات التي دعاها بأسمائها، والأشجار التي أحلّ له أكل ثمارها إلا واحدة منها»[1].

ب - في نظر الدين الإسلامي:

إن صورة آدم في الدين الإسلامي تتناقض تماماً مع الصورة التي رسمها رجال اللاهوت في سفر التكوين وسواه من الكتب والكتابات. فالله سبحانه وتعالى كما تقول الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2]، وإن كان قد ورد في بعض الأحاديث النبوية، الحديث الذي يشبه التصور اللاهوتي والقائل: «بأن الله خلق آدم على صورته»[3] إلاّ أن هذا لا يعني أبداً أن آدم خُلق على صورة الله، سبحانه وتعالى الذي لا يشبهه أحد من المخلوقات، وأنه وإن اجتهد رجال الدين في توضيح هذا الأمر، واختلفوا في ترجيح «الهاء» في كلمة «صورته» إلى الله، أو إلى «آدم»، فهم متفقون في اجتهادهم على أن الله خلق آدم، بفعله الخلاّق، على شكل مثل شكل الإنسان الآدمي المعروف من غير تفاوت البتّة؛ وبالتالي فإن آدم لم يخلق أبداً على

---

(١) بولس موترد: دائرة المعارف، ف. أ. ب. ج: ١ ص١٠٦. مادة آدم

(٢) القرآن الكريم. سورة الشورى: ٤٢ - آية: ١١.

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم في الصحيحين.

صورة الذات الإلهية إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1].

---

(1) جاء في كتاب ابن الجوزي: «دفع شبه التشبيه بأكفّ التنويه في الردّ على المجسمة والمشبِّهة» (تحقيق محمد أبو زهرة) ص ٤٧ - ٤٩، من أن «رجال الدين المسلمين اجتهدوا في توضيح هذا الأمر على ثلاثة أوجه.

١ - منهم من ردّ «الهاء» في «صورته» إلى بعض بني آدم. مستندين بهذا التفسير إلى الحادثة التالية وهي: أن النبي ﷺ مرّ برجل يضرب رجلاً وهو يقول: «قبحَ الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك». فقال ﷺ: «إذا ضرب أحدكم، فليتق الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته». وإنما خصّ آدم بالذكر، لأنه هو الذي ابتدئت خلقة وجهه على هذه الصورة التي احتذى عليها من بعده، فتكون «الهاء» في نظرهم كناية عن المضروب أي الوجه.

٢ - والقول الثاني: أن «الهاء» كناية عن اسمين ظاهرين، فلا يصلح أن تصرف إلى الله عزّ وجل وقيام الدليل أنه تعالى ليس بذي صورة، فعادت إلى آدم الذي خلقه الله على صورته التي خلقه عليها تماماً. أي بمعنى آخر، ولم ينقله من نطفة إلى علقة كبنيه الذين خلقهم من بعده.

٣ - والقول الثالث: إن «الهاء» تعود إلى الله، تعالى وهي تفسر:

١ - إما على أنها صورة ملك، لأن الصورة من فعل الله وخلقه. فتكون اضافتها إليه تشريفاً كقوله: «وطَهِّرْ بيتي للطائفين والعاكفين».

٢ - أو أن يكون ابتدع صورة آدم، لا على مثال سابق.

٣ - أو أن تكون بمعنى الصفة فتكون الصورة هنا معنوية، لا صورة تخطيط وهيئة.

ج - في نظر رجال العلم الغربيين:

أمّا بالنسبة إلى رجال العلم الحديث، فإنهم قد اتجهوا اتجاهاً مغايراً لهذه العقيدة وتلك في خلق آدم. وسعى بعضهم إلى بناء ملحمة، هي ملحمة الحياة والكون السائرة في تصعيد فكرة التطور والتدرج بتغاير الأنواع من الأضعف إلى الضعيف... إلى ظهور الإنسان. «وإن هذا التدرج والتطور، يقتضي ملايين من السنين حتى تفسح مجالاً للنبات، ليصلح قوتاً للإنسان، ومجالاً للحيوان ليندرج من الأسماك إلى القوازب، ومن القوازب إلى الزواحف ومن الزواحف إلى ذوات الضرع، قديمها وحديثها، إلى القردة بل «أشباه البشر»، الذين تنبىء بوجودهم بعض العظام المكتشفة، والذين نلمح فيهم بقايا تباشير الحياة البشرية على الأرض من العهد الذي ظهر فيه الإنسان»[١].

ولقد تتالت الأبحاث حول هذا الموضوع حتى جاء «شارل داروين»، العالم الطبيعي الإنكليزي، بنظرية «النشوء والارتقاء بالانتخاب الطبيعي» مع إصدار كتابه المعروف

---

(١) يراجع هذا الموضوع في موسوعة: بهجة المعرفة، المجموعة الثانية. عدد: «هذا الإنسان»، دار المختار للطباعة والنشر. إيطاليا.

و: Early Man: F. Clark Howell. Time - Life Books. NewYork; 1970.

«تسلسل الإنسان». «Descent of Man» عام ١٨٧١، شارحاً نظريته هذه. وقد أحدث، آنذاك، مذهبه الذي عرّف به الإنسان باسم «الإنسان القردي»، ضجة كبرى لا سيما عند رجال الاكليروس الغربيين، مما حمل الأسقفWilber force على الإعلان في هجمة عنيفة ضد «داروين» ونظريته، متهماً إياه بالإجرام بحق الله وحق البشرية جمعاء، إذ يقول: «إن «داروين» قد أجرم بنزوعه إلى تحديد مجد الله في فعل الخلق. وإن مبدأ الانتخاب الطبيعيNatural Selection يتعارض مع كلمة الله كل التعارض لأنه يناقض العلاقة بين الخليقة وخالقها، كما قررها الوحي، وإنه غير متسق مع كمال المجد الإلهي[١]».

وعندما انعقد المجمع البريطاني لتقدم العلم في بريطانيا:
. British Assosiation for the Advancement of Sience

أعلن أحد المجتمعين فقال: «إنه يشعر بالغبطة لأنه لم ينحدر من جدّ من القردة» عندئذ انبرى «هكسلي» Huxlay أحد المؤيدين لنظرية داروين وردّ عليه بقوله:

«لو خُيّرتُ، لآثرتُ أن أكون من سلالة قرد وضيع، على أن أكون ابن رجل من البشر، يسخّر علمه وفصاحته

---

(١) Evolution: Ruth Moore. Chap: Darwin's Voyage in the past. p. 7 - 25. Time. Life Books. NewYork 1970.

في الإساءة إلى أولئك الذين يقضون حياتهم في خدمة البحث عن الحقيقة[1].

وعلى أية حال، مهما كانت آراء رجال الإكليروس وعلماء الغرب مختلفة في أصل «الإنسان»، فالسؤال الذي يبقى مطروحاً، هو: أصل بذرة الحياة؟ لعل الإجابة تحمل الرد الصائب في هذا المجال من خلال الآيات البينات في القرآن الكريم.

أصل الحياة:

إن مسألة أصل الحياة كانت ولا تزال شغل الشاغلين في كافة العصور. وقد تناول الدين الإسلامي من باب التفكر في آيات الله هذه القضية، وعالجها مثلاً في العديد من آيات القرآن الكريم منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾[2] سورة الفرقان، الآية ٥٤.

وقوله﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] سورة الأنبياء، ٣٠.

---

(١) نقلاً عن الدكتور توفيق الطويل من كتابه: قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ص ٢٤.

(٢) القرآن الكريم: سورة الفرقان: ٢٥، ج : ١٩، آية: ٥٤.

(٣) القرآن الكريم: سورة الأنبياء ٢١ ـ آية: ٣٠.

وقـــولـــه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ سورة النور، ٢٤ ـ الآية ٤٥.

فسرّ القرطبي هذه الآيات موضحاً فقال ما فحواه: «إن الماء هو أصل الحياة في كل الكائنات الحيّة المحيطة بنا في هذا الكون الفسيح؛ والماء هو مادة أساسية في صنع كل شيء حي». وهذا المعنى الجليل يتوافق مع معطيات العلم الحديثة، التي أقرّها علم المحيطات أو علم الاقيانوسات Oceanography هذا العلم الذي أحرز تقدماً هائلاً بعد الحرب العالمية الثانية، ومجمل تلك المعطيات «أن الماء هو العنصر الأول لكل خلية. وهذه الحقيقة قد سمحت لهؤلاء العلماء بالتفكير بأن الكائنات الحيّة الأكثر قدماً تعود إلى علم النبات. وأن بعض عناصر الحيوان القديمة ظهرت بعد ذلك بقليل. وقد جاءت من المحيطات، وأكتشفت في الكهوف والصخور المائية منذ أكثر من ٣٠٠ مليون سنة»[١].

وإنّ ما يهمنا معرفته في بحثنا هذا هو أصل بذرة آدم،

---

(١) Leonard Engel: The Sea. Chapter. the Mysteries of the Watery Depths. p. 7 - 15 Time - Life Boods. NewYork. 1970.

لننظر فيما بعد، في شأن حواء فهل هي من طينة أخرى غير طينته؟ ومن جنس غير جنسه؟[1] فتحديد كذا نقطة ييسر الإحاطة في موضوع قدر المرأة ووزنها وأهليتها في الحقوق والواجبات من حيث التصور الإسلامي.

أ ـ بذرة خلق آدم:

لقد وردت في القرآن الكريم آيات عدة في وصف المادة التي خلق منها آدم، أبو البشر، منها على سبيل المثال: قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾[2] سورة ص، الآية ٧١.

وقوله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾[3] سورة الرحمن، الآية ١٤.

وقوله جل شأنه:

---

(١) نذكّر هنا بالقرار الذي اتخذ في مجمعي ماكون وقرطاجة من أن المرأة خلو من الروح الناجية من عذاب جهنم. وإنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان. (يراجع في ذلك وضع المرأة المسيحية في هذا البحث).

(٢) القرآن الكريم: سورة ص: ٣٨ ـ آية: ٧١.

(٣) القرآن الكريم: سورة الرحمن: ٥٥ ـ آية: ١٤.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1] الحجر، ١٥ الآيتان ٢٨، ٢٩.

وقوله عز وجل:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾[2] سورة السجدة، ٣٢ الآيات ٧ ـ ٨ ـ ٩.

جاء في تفسير الإمام النسفي[3]، «أن «الإنسان» هنا يعنى آدم. وأن كلمة «سلالة» تعني الإبتداء؛ والسلالة الخلاصة. وقوله عز وجل: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هو كقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾. لأن آدم عليه السلام

---

(١) القرآن الكريم. سورة الحجر: ١٥ ـ آية: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) القرآن الكريم. سورة السجدة: ٣٢ ـ آية: ٧، ٨، ٩.

(٣) النسفي عبد الله: مدارك التزيل ومحاسن التأويل ٣/ ٤٥٤.

شرح المفردات: صلصال: طين يابس أسود اللون متغيّر ويصوت إذا نقر.

حمأ: طين أسود.

مسنون: مصورة على هيئة الإنسان.

نفخ فيه من روحه: أودع فيه الروح. وهي من أمر الله فصار حياً.

لم يصر نطفة. لذلك تسمي العرب: النطفة السلالة أيضاً».

ويبقى السؤال مطروحاً. كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته كعنصر ترابي إلى طبيعة الحياة الإنسانية؟

لو أمعنا النظر في هذه الآيات. لوضح لنا أن آدم عليه السلام لم يأتِ من هذا الطين مباشرة. وإنما تمت عملية التحول بعد سلسلة متعاقبة من مراحل معينة، أدت بالنتيجة إلى ظهور الإنسان على الصورة المثلى التي خلق الله عليها آدم حيث بلغ فيها كماله في إطاره النوعي مصداقاً لقوله تعالى:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[1] سورة نوح، ٧١ الآيتين ١٣ ـ ١٤.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾[2] سورة الإنسان، الآية ١.

هذا وقد ورد عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ، أنه قال:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأسود

---

(١) القرآن الكريم. سورة نوح: ٧١ ـ آية: ١٣ ـ ١٤.

(٢) القرآن الكريم. سورة الإنسان: ٧٦ ـ آية: ١.

والأبيض وبين ذلك؛ والسهل والحزْن، والخبيث والطيب. ثم بُلّت طينته حتى صار طيناً لازبا. ثم تركت حتى صار حمأ مسنوناً ثم تركت ثم صارت صلصالاً»[1].

وذلك لقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾[2] الحجر ١٥ الآية ٢٦.

هذا وقد أجمع مفسرو القرآن الكريم القدامى على وصف هذه السلسلة من الأطوار بقولهم: «إن الله ـ عز وجل ـ خلق آدم من تراب وماء فصار طيناً. فمكث فصار حمأ، فخلص فصار سلالة، فصور ويبس فصار صلصالاً. حتى إذا أتّم الله خلقة آدم وصوّرها نفخ فيها من روحه فأحياها، فصيّر ذلك الطين بشراً سويا أي إنساناً من لحم وعظم وعصب وسمع وبصر وعقل يدرك وإرادة تتحرك».

كذلك ذهب المحدثون من المفسرين مذهب أسلافهم القدامى في تعليل النشأة الآدمية الأولى فقالوا:

«إن الله خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج، المتحوّل إلى صلصال. ثم من النفحة العلوية التي فرقت

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك. ١/ ٩١ ـ ٩٢.

(٢) القرآن الكريم. سورة الحجر: ١٥ ـ آية: ٢٦.

بينه وبين سائر الأحياءِ، ومنحته خصائصه الإنسانية، وأولها القدرة على الإرتقاء في سلم المدارك العليا الخاصة بعالم الإنسان. هذه النفحة التي تصله بالملأ الأعلى. وتجعله أهلاً للإتصال بالله، للتلقي عنه، ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه العقول والقلوب»[1].

إذا اقتصرنا على هكذا تأويل، فإنا نقول إنه عندما بلغ آدم مرحلة متقدمة من التطور العضوي وأصبح مؤهلاً لنفحة الروح، صار إنساناً سوياً يتميز عن سائر المخلوقات مؤهلاً لنفحة الروح التي تجلّت في ظاهرتين رئيسيتن هما:

أولاً: انتصابه على قدميه وتحرير يديه وذلك في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ سورة الإنفطار (آية: ٦، ٧، ٨).

وهنا نتوقف عند لفظة «عَدَلَكَ» التي جاءت بعد لفظة «سوّاك». و «عَدَلَ» في اللسان العربي لها أصلان صحيحان. ولكنهما متقابلان. أحدهما يدل على الاستواء،

(١) سيد قطب في ظلال القرآن. المجلد ٣. تفسير سورة الأعراف. آية: ١١.

والآخر على الأعوجاج. وبما أن معنى الاستواء جاء في آية واحدة مع الخلق والتسوية، فإننا نرى أن المعنى الصحيح هو الاستواء على قدمين لأن الإنسان الآن مستوٍ على قدميه، ومتحرر اليدين[1].

ثانياً: وأما الظاهرة الرئيسية الثانية لنفحة الروح، فهي نضوج الجهاز الصوتي الذي خصّ الله به الإنسان دون غيره، ـ قال سبحانه وتعالى في سورة الرحمن:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[2] الرحمن ٥٥ الآيات ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤.

وكخاتمة لقصة آدم، قال الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[3] التين ٩٥ الآية ٤.

ولقد ميّزه عز وجل بالعقل مجال التكريم ومناط التكليف. وهذا أكمل الكمال وأجمل الجمال، إذ خلقه في أكمل صورة، وأجمل هيئة، ثم نفخ فيه من روحه فأحياها،

---

(١) شحرور محمد: الكتاب والقرآن. قراءة معاصرة. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٩٢م/ ١٤١٢هـ ص: ٢٨٦.

(٢) المرجع السابق: شحرور ص: ٢٨٧.

(٣) القرآن الكريم. سورة التين: ٩٥ .آية: ٤.

إذ صيّر ذلك الطين بشراً سوياً ابتدأت معه مرحلة «الأنسنة» أي إضفاء صفة الإنسان عليه بكونه يتألف من لحم وعصب وعظم وسمع وبصر وعقل يدرك؛ وإرادة تتحرك، ثم إنه عز وجل سخرّ له الأرض وما فيها من نبات وحيوان وجماد، كما وهبه القدرة والحكمة لتذليل الكثير مما عليها، وأخيراً علّمه ما لا يعلم ليجعله فيما بعد، خليفة على الأرض.

وإننا إذا ما تساءلنا من أي كلمة اشتق لفظ «آدم»، فإننا نقول: من «آدم». وهذا الفعل في اللسان العربي له أصل واحد: هو الموافقه والملاءمة. ومنها جاءت الأدمة وهي باطن الجلد لأن الأدمة أحسن ملاءمة للّحم من البشرة ولذلك سُمّي آدم عليه السلام، لأنه أُخذ من أدمة الأرض. هنا يجدر التنويه بأن لفظ آدم يتضمن المصطلحين معاً؛ فالكائن البشري مؤلف عضوياً من عناصر موجودة في الأرض، ثم إنه بعد انتصاب قامته وتمتعه بالجهاز الصوتي المناسب أصبح موافقاً وملائماً لعملية الأنسنة... وهنا ينبغي أن ندرك أن المعنى من لفظ آدم هو معنى شمولي ليس بمحدود؛ إنه يعني جنس آدم؛ يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فإنه يخاطب الجنس الآدمي[1].

---

(١) شحرور محمد: الكتاب والقرآن. ص: ٢٩١.

المحور الثاني: خلق الزوج من هذه النفس الواحدة:

هذه هي عقيدة الإسلام في خلق النشأة الأولى للإنسان أي آدم أبي البشرية عليه السلام.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو:

- كيف خلقت حواء؟

- هل خلقت من نفس المادة التي خلق منها آدم؟

- أم أنها خلقت من مادة أخرى تختلف عن مادته كما جاء في تاريخ الحضارات السابقة للإسلام؟

جاء في الجزء الثاني من الآية الكريمة التي اعتمدناها كمحور اساسي لهذا البحث، قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

قال المفسرون:[1] «إن الله خلق من هذه النفس الواحدة زوجها» أي الزوج الثاني لها، «وهو حواء». ومغزى هذا التفسير يعني أنّ الله خلق من «هذه النفس الواحدة زوجها أي قرينها. فهي بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل»[2].

---

(١) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، ٣/١٤٩، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٥/٢.

(٢) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٤/١٣٧.

إن الآية الكريمة رغم إيجازها، بليغة وواضحة وغنيّة عن التفصيل والتطويل في مدلولها الذاتي، وإن هي ضمنياً، تثير بعض الأسئلة التي ربما تراود ذهن القارىء بخصوص حواء ووجودها.

من المؤكد أن هذا النمط من الأسئلة يبقى العلم أمامها صامتاً، لأنه يفقد المعطيات الموثقة اللازمة، إلاّ أننا نجد على كل حال وجهاً من وجوه التفسير والتأويل لها، في الكتب السماوية:

١ - في سفر التكوين:

إن كيفية وجود حواء كما وردت في التوراة سبق ذكرها، عندما تكلمنا عن آدم وحواء والخطيئة.. وفي هذا المجال، تضيف التوراة قائلة:

«إن الرّب بعد أن أخذ آدم ووضعه في جنّة عدن قال: «ليس جيّداً أن يكون آدم وحده، فأضع له معينا نظيره.. ثم أوقع الربّ الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً، وبنى الربّ الإله الضلع التي أخذها من آدم، امرأة، وأحضرها إلى آدم. فلما أفاق هذا من غفوته، صاح آدم فرحاً وقال: «هوذا الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة، لأنها خلقت من أمرىء»[1].

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح الثاني، آية ١٨ - ٢٤.

ثم دعا آدم اسم امرأته «حواء» لأنها أصل كل حيّ. ثم وضع الرب الإله لآدم وحواء أقمصة من جلد وألبسهما[1].

وهنا يبدو واضحاً، أن كاتب التوراة يعتقد أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم، وهي بالتالي عظم من عظامه ولحم من لحمه، خلافاً لما كان يروِّجه بعض رجال اليهودية فيما بعدُ، من أنها «عمل من عمل الشيطان»! أو من بعض رجال الكنيسة الذين كانوا يميلون إلى الاعتقاد أنها خلقت من نفسٍ غير نفس آدم!.

٢ ـ في القرآن الكريم:

أما في القرآن الكريم، فقد وردت هذه الكيفية في إطار لقوله تعالى:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[2].

هذه الآية الكريمة قدمت وأوردت قصة «الزوج»؛ إنها امرأة، إنها حليلة دفعة واحدة. وقد اجتهد المفسّرون المسلمون في إيجاد تعليل لكيفية خلق «هذا الزوج» وقد تباينت آراؤهم فكان منهم فرقاء:

أ ـ فريق يعتمد على ما ورد من أخبار حول خلق حواء

---

(١) التوراة: سفر التكوين، الإصحاح الثالث، آية: ٢٠.

(٢) قرآن كريم: سورة الإعراف: ٧، ج ٨، آية: ١٩.

عند أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم.

فذكروا مثلاً ما ورد على لسان ابن إسحاق معتمدين على تأويله من أنه:

«لما فرغ الله تعالى من معاتبة إبليس، أقبل على آدم عليه السلام وقد علمه الأسماء كلها» فقال تعالى:

﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ إلى قوله:

﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

قال: ثم القى السِّنَة على آدم - يقول ابن إسحاق! فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم - ثم أخذ ضِلَعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانها لحماً، وآدم عليه السلام نائم لم يهبّ من نومته، حتى خلق الله تعالى من ضلعهِ تلك زوجه حواء، فسوّاها امرأة ليسكن إليها فلما كشف عنه السِّنة وهبّ من نومته رآها إلى جنبه، فقال: . فيما يزعمون والله أعلم - لحمي ودمي وزوجتي، فسكن إليها، فلمّا زوّجه الله عز وجل وجعل له سكناً من نفسه قال له:

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

---

(١) الآية من سورة البقرة: ٢-الآية: ٣٥-والخبر في تفسير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ١٥٤، وفي تاريخ الطبري: ١/ ١٠٤.

ومن الذين نَحَوْا منحى ابن إسحاق، مجاهد الذي فسرّ قوله تعالى بما يلي:

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي «حواء» من قُصَيْرى[1] آدم، وهو نائم فاستيقظ فقال: «أثا» بالنبطية، أي امرأة[2] تاريخ الطبري. ١/ ١٠٤.

وكذلك قتادة الذي قال: «وخلق منها زوجها» أي حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم»[3].

وأخيراً السدّي[4] الذي نقل عنه عن ناس من أصحاب الرسول ﷺ: قوله: «فأخرج الله إبليس من الجنة حين لُعن، وأسكن آدم الجنة. فكان يمشي فيها وحشياً، ليس له زوج يسكن إليها. فنام نومة فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنتِ؟

قالت: امرأة!

قال: لِمَ خلقتِ؟

---

(١) قصيرى: جاء في تفسير الطبري: ٢/٢٥ إن قصيرى هو أسفل الأضلاع، وقيل الضلع التي تلي الشاكلة بين الجنب والبطن.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ١٠٤.

(٣) تاريخ الطبري: ١/ ١٠٥.

(٤) ابن إسحاق، ومجاهد، والسدّي، وقتادة. هم من ثقاة التابعين المعروفين بالتفسير لآي الذكر الحكيم.

قالت: لتسكن إليّ.

قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ علمه! ما اسمها يا آدم؟

قال: حواء.

قالوا: لِمَ سمِّيَت حواء؟

قال: لأنها خلقت من شيء حيّ. فقال الله تعالى:

﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[1].

ب ـ وفريق ثانٍ يعتمد على التفسير اللغوي لمعنى حرف الجر «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ومن هذا الفريق أبو مسلم الذي جاء تفسيره على النحو التالي: «وَخَلَقَ مِنها زَوْجَهَا» أي خلق من جنسها. مستنداً على قوله تعالى:

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.

لأن الله تعالى قادر على خلق حواء من التراب. فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟[2] ويشهد لهذا التفسير قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فإن الجنس إلى الجنس

---

(١) الآية من سورة البقرة الآية ٣٥ والخبر: تاريخ الطبري ١/ ١٠٤. والطبري: جامع البيان في تفسير القرآن. ٤/ ١٥٠.

(٢) النيسابوري: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (على هامش تفسير الطبري)، ٤/ ١٧٧.

أسكن[1] وقد ذهب مذهبه من المحدثين الشيخ «محمد رشيد رضا» الذي ردّد أن «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَة» أي من جنسها، «فحواء» من جنس «آدم»، ولا من ضلعه.[2]

ج ـ وقد برز فريق ثالث غلّب معنى «البعضية أي الجزئية على حرف «مِنْ» الجارّة. مثل «النيسابوري» الذي قال: «لو كان الأمر كما ذكر أبو مسلم، لكان الناس مخلوقين من نفسَيْن، لا من نفس واحدة. وهو خلاف النص» وخلاف ما روى عن النبي ﷺ من أن المرأة خلقت من ضلع أعوج[3].

د ـ وهذا الخلاف حدا بفريق رابع ليوفق بين هذه الآراء جميعاً، أمثال «أبي جعفر» الذي قال كما جاء في تفسير الطبري: «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا». يعني:

«بأنّ الله وصف ذكر نفسه بأنه المتوحد بخلقِ جميع الأنام من نفس واحدة. وعرّف عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من «النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ». ونبّههم على أن جميعهم بنو رجل واحد، وأم وا حدة، وأن بعضهم من بعض، وأن من

(١) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، المجلد العاشر، ج ٢١، ص ٣١.

(٢) محمد رشيد رضا: التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد.

(٣) النيسابوري: المصدر السابق، ٤/ ١٧٧.

حق بعضهم على بعض وجوب الأخ على أخيه لاجتماعهم في النسب إلى الأب الجامع بينهم»[1].

وقد ذهب مذهبه هذا، الإمام «عبد الله النسفي» إذ قال: «إنّ الخطاب موجّه لبني آدم الذي شعّبهم من نفس واحدة، هذه صفتها. وإنه أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء، من ضلع من أضلاعه»[2].

هذا ما ذهب إليه المفسّرون المسلمون في شأن وجود «حواء»، إنها آراء مجتهدين - والاجتهاد نص عليه الدين الإسلام حصراً - وبالتالي كان هناك من تباين في الآراء، في كوْن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم، أم أنها خلقت من جنس المادة التي خلق منها آدم. حسبُ «حواء» في جميع الآراء، أنها منحت شهادة يشهد لها بوحدة الأصل والمنشأ والتكوين، وهذه تعتبر بمثابة صك يجمع بينها وبين آدم زوجها، رفيق دربها، وشريك حياتها. هذا الصك تقرّر أصلاً منذ بداية الخليقة مع سيدنا آدم عليه السلام، وقد طُمست معالمه، وانقلبت حقائقه على مرّ العصور، إلى أن جاء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والرسل، ليعيد على مسامع

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٤٩.

(٢) الإمام عبد الله النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١/ ٢٨٧.

الناس، حقيقة وحدة الأصل والمنشأ والتكوين، بين آدم وحواء في آيات بيّنات عدة منها:

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1].

وقوله جل وعز: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3].

وقوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[4].

كما جاءت أحاديث الرسول الشريفة لترسّخ هذه الحقيقة في عقول الناس كقوله عليه الصلاة والسلام:

«أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»[5]. و «خلقت المرأة من الرجل، فهمّها في الرجل. وخلق الرجل من التراب،

---

(١) قرآن كريم: سورة الإعراف: ٧، ج ٩، آية: ١٨٩.
(٢) قرآن كريم: الأنعام: ٦ ـ آية: ٩٨.
(٣) الزّمر: ٣٩ ـ آية: ٦.
(٤) قرآن كريم: سورة الروم: ٣٠، ج ٢١، آية: ٢١.
(٥) رواه أبو مسلم وداود.

فهمّه في التراب»[1].

بديهياً، إن الإقرار بوحدة الأصل والمنشأ بين آدم وحواء من البديهيات التي لا يحتاج إلى دراسة أو إعادة نظر في المفهوم الإسلامي، لأنّ «حواء» غدت في عرف الشريعة الإسلامية مخلوقاً بشرياً كآدم تماماً لها روح إنسانية من نفس النوع الذي خلق منه زوجها آدم. وإنّها مثله من ماء وطين، خلقهما الله عز وجل الخالق المبدع الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. فكان آدم عليه السلام، على الصورة المثلى التي شاء الله لها أن تكون من مادتي الماء والتراب وفي أحسن تقويم. وكذلك كانت حواء ـ زوج آدم ـ على الصورة التي خلقها الله عليها ومن نفس المواد، في أجمل صورة وأتمّ كمال. فهما إذن يتشابهان في كل شيء جسدياً وعقلياً ونفسياً وروحياً، ولا يختلفان إلاّ بمقدار الفارق المميز لكل جنس من جنسهما الكامن في الذكورة والأنوثة.

أهمية قرار الإسلام في شأن التسوية بين المرأة والرجل:

إن قرار الدين الحنيف بشأن المساواة بين آدم وحواء

(١) النسفي: مدارك التنزيل ومحاسن التأويل، ٢/ ١٨٧.

على صعيد الأصل والمنشأ والكرامة والمروءة، هذا القرار كان باتاً بحيث أنه جعل الشريعة الإسلامية توجه التفكير الإسلامي إلى أن **ينظر المسلم إلى إنسانية المرأة والرجل بمنظار واحد في مسألة الأصل والمنشأ والتكوين**، وفي مسألة تحمل مسؤولية متساوية نسبياً إلى حد كبير بخصوص اتباع النهج القويم أو سلوك مسلك الزيغ والضلال. لذلك فهو يدعوهما معاً إلى صنع حركة الحضارة الإسلامية في حياة الناس... وهذا ما نستوحيه من بعض آي الذكر الحكيم الذي يحمّل المؤمنين مسوؤلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدم المساواة مع المؤمنات، هذه النواة تؤكد على لبنة من صرح الإندماج الإنساني الإسلامي بحيث يكون بعضهم أولياء بعض في العمل والتعاون في كل المجالات المشتركة، يقول الله تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[١].

---

(١) القرآن الكريم: سورة التوبة: الآيتان: ٧١ و ٧٢.

ونجد إزاء هذه الصورة المشرقة المتحركة في آفاق رحمة الله صورة أخرى، هي صورة **المنافقين والمنافقات** الذين يتخبطون خبط عشواء في الواقع السلبي بكل معنى الكلمة. إنه مجتمع هؤلاء منحرف ويقوم على الارتباط العضوي بين المنافقين والمنافقات بحيث يتصل بعضهم ببعض، ويقوي بعضهم بعضاً في حركة معاكسة لتيار الحياة الصحيح، تيار إبعاد الحياة عن المعروف وتقريبها من خط المنكر. ويتضح ذلك في قوله تعالى:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[1].

هكذا يتحدث القرآن الكريم عن الرجال والنساء معاً في حياتهم الحركية في الدائرتين: الإيجابية والسلبية من دون أن يجعل للرجال دوراً أكبر أو أخطر من دور النساء. ومن دون أن يعزل أياً منهما عن مسؤوليته من واقع الحياة المليء بالأشغال، لا سيما المرأة وهي ذات أدوار خاصة

---

(١) القرآن الكريم. سورة التوبة: الآيتان: ٦٧ و ٦٨.

بها وهي: الأمومة والزوجية؛ يحمّلها مسوؤلية الاستقامة والانحراف بنفس المستوى الذي يحمله للرجل.

وجاءت أقوال الرسول محمد ﷺ لترسخ في أذهان الناس هذا اليقين بأن المرأة أهل لتلقي أوامر الله ونواهيه. وأنها في ذلك صنو الرجل ومساوية له من حيث التكريم والتشريف. ومن حيث الأمر والتكليف، ومن حيث الجزاء والعقاب إذ جاء في الحديث الشريف: «إنما النساء شقائق الرجال» أي لهن ما لهم، وعليهن ما عليهم من الحقوق والواجبات.

ولكن مما تجدر ملاحظته، أن الإسلام وإن كان قد أكدّ على مبدأ وحدة الأصل والمنشأ والتكوين، وخطا بعد اقرار هذا المبدأ، خطوات واسعة ومشرّفة في مجال التسوية الطيبة الصالحة بين الذكور والأناث، فإنه جعل القاعدة الزوجية أساساً في حياة مختلف الأجناس: من حيوان ونبات وجماد ورسخها في أذهان الناس في كثير من الآيات البينات لأنها تنطبق عليها جميعاً انطباقها على حياة الإنسان إذ يقول سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[1].

---

(١) القرآن الكريم: سورة النجم: ٥٣ ـ آية: ٤٥ ـ ٤٦.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾[1].

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2].

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[3].

هذه الذكورة والأنوثة، هي إذن سرّ مشيئة الخالق عز وجل في كنه الخلق وقوامه «جعل الله منه الزوجين: الذكر والأنثى»، وهي كذلك من صميم سنَّة الحياة الكونية وقد جعلها الله أساساً تخضع له جميع الأشياء من إنسان وحيوان وجماد ونبات. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه العلاقة الثنائية بين شيئين متميزين بعضهما عن بعض، ومتقابلين في أمر محدد بمصطلح «الأزواج»، وهذه العلاقة تشمل كل الموجودات في الكون؛ فهي علاقة خارجية بالنسبة للشيء «الزوج» وللشيء المقابل له «الزوج الآخر». وتؤكد هذه القاعدة أن الأشياء في الكون المادي لا يمكن أن تكون منعزلة بعضها عن بعض. لذا فهي بالضرورة تكون علاقة تقابلية من الأشياء الأخرى في مستويات

---

(١) القرآن الكريم: سورة يس: ٣٦ ـ آية: ٣٦.

(٢) القرآن الكريم: الحج: ٢٢ ـ آية: ٥.

(٣) القرآن الكريم: الأنعام: ٦ ـ آية: ٣٨.

لا حصر لها، بل هي علاقة خارجية بين شيئين متقابلين «زوجين» معلومين أو لا يزالان مجهولين يمكن أن نصفها بأنها علاقة تأثير وتأثر متبادلين بين شئين متميزين بعضهما عن بعض «زوجين» تؤدي إلى التكيف والتلاؤم المستمر بين هذين الشيئين، وتكون هذه العلاقة الخارجية في مستويات عديدة، والصياغة المثلى لهذا القانون وردت في القرآن الكريم ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الذاريات، الآية ٤٩[١].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن العلم الحديث لاحظ وجود هذه الزوجية إذ أقرّ بوجوب وجود موجب للحياة، وبوجود سالب لها، مؤكداً على أهميتها بقوله: «إنه كلما كان الموجب موجباً، والسالب سالباً، يكون التكامل أَروع وأشد إنسجاماً في حياة المخلوقات التي تملأ هذا الكون الواسع، تماماً كما يحصل في مجال الكهرباء. فلو اجتمع موجب وموجب لكانت شرارة مدمِّرة محرقة، ولو اجتمع سالب وسالب في المجال ذاته لكان موات»[٢].

كذلك فإن العلم الحديث قد أكّد على تكوّن الذرة من الكترون وبروتون، وانحلال الذرات كلها إلى كهارب

(١) محمد شحرور: الكتاب والقرآن. ص: ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) عبود عبد الغني: الأسرة المسلمة، ص: ٥٣.

موجبة وأخرى سالبة في كل الكائنات وهي لا تدخل في تركيب الإنسان والحيوان وحدهما فحسب، بل تدخل في تركيب النبات والجماد. ويؤكد العلم أيضاً على أن ازدواج التركيب الذري لا يناقض وحدة الأصل «الجنسي» أو «النوعي». فكما أن جنس النبات واحد وهو مركب من زوجين، وجنس الحيوان واحد وهو مؤلف من زوجين، فإن جنس الإنسان واحد وهو مكون أيضاً من زوجين اثنين: الذكورة والأنوثة مصداقاً لقول تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يس، الآية ٣٦.

غني عن البيان، أن لفظ «سبحان» القرآني يعني تنزيه الله تعالى تنزيهاً مطلقاً عن أن ينطبق عليه قانون الزوجية. وأخيراً مما يجدر التنويه به إلى أن كلمة «الزوج» في اللسان العربي لفظة ليس لها مؤنث. فالذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر. أما عملية القران الشرعي بين الذكر والأنثى، فقد أطلق عليها القرآن الكريم مصطلح «النكاح». فنقول عقد نكاح ولا نقول عقد زواج لأن الأساس في معنى الزوجية الطبيعي هو أن **الذكر زوج الأنثى في الوجود لا في العقود**، وأيّ أنثى هي زوج لأي ذكر بالخلق.

نستخلص مما تقدم أنه على الرغم من الإعتراف

بوحدة الجنس البشري في كل شيء جوهري من حيث تركيبه الذري المزدوج، إلاّ أن هناك تغايراً في الوظائف، وهو نتيجة اختلاف في طبيعة الذكورة والأنوثة. ففي الجنس البشري مثلاً نلاحظ أن المرأة غير الرجل، والرجل غير المرأة. وهما وإن كانا شطرين لنفس واحدة، إلاّ أنهما يختلفان اختلافاً جذرياً. وإن هذا الاختلاف ليس منحصراً بين أجهزة الذكورة، وأجهزة الأنوثة فحسب. وإنما هو اختلاف يتبعه اختلاف في التكوين الداخلي، وفي إفراز الغدد والهرمونات، ويتبعه نتيجة لذلك اختلاف في وظائف الأعضاء وقدراتها وإمكانياتها العقلية والإنفعالية والمزاجية كما تبيّنها الآن وسائل العلم الحديث الذي أثبت بالتجربة والتشريح، بأن طبيعة المرأة تختلف بالفعل عن طبيعة الرجل من النواحي التركيبية والفيزيولوجية للأعضاء، كذلك من الناحية النفسية[1] ليتحقق من هذا الاختلاف حياة فيها ثراء وفيها عطاء، وفيها استمرار للحياة الإنسانية لأن الله سبحانه وتعالى خصّ الرجل بوظائف محدّدة بجنسه جسدياً وعقلياً ونفسياً، كما خص المرأة وميزها بأعمال

---

(١) يراجع في هذا الموضوع: دائرة معارف القرن العشرين مادة: «المرأة».

أعدها الله إلى القيام بها عضوياً ونفسياً وعقلياً، فهي وحدها التي تحمل وتلد وترضع. ولكن ما دون هذه الوظيفة، فإنّ المرأة تستطيع أن تشارك الرجل في مهامه، والرجل يستطيع كذلك أن يشارك المرأة في مهامها، **ولكن دون أن يحل أحدهما مكان الآخر،** لأنّ الوضع الصحيح في نظر الشريعة الإسلامية، أن ينهض كلّ من الرجل والمرأة لتلبية وظيفته الأصلية، وأن يحقق هدفه المرسوم له على وجهه الأكمل، حتى لا يرهق التعدي طاقة أي أحد منهما فيقعده عن القيام بواجبه الأصلي. لذلك نظمت الشريعة الغراء تقسيم الأدوار والمهمات بينهما على أساس عملية التكامل الإنساني، الذي يضيف فيه كل فريق من الذكر والأنثى، شيئاً من خصائصه إلى الفريق الآخر لتتحد الخصائص الإنسانية على مستوى النتائج في تكامل الأدوار والمسؤليات القائمة بين هذين الزوجين.

وإننا لو اعتقدنا غير ذلك، لنفينا وجود جنسين مختلفين متمايزين. ولقادنا اعتقادنا هذا، إلى وجوب وجود جنس واحد، له صفات واحدة، ومؤهلات واحدة، ومسؤليات واحدة، وغايات وأهداف حياتية واحدة. فنكون بذلك قد شططنا شططاً كبيراً في مخالفة شريعة الله سبحانه وتعالى ومخالفة سنة الكون لناحية قانون الزوجية القائم بين طبيعتي الذكر والأنثى.

المحور الثالث: وبث منهُما رجالاً كثيراً ونساء:

تعني كلمة «بث» في اللغة العربية التفريق والانتشار. وقد فسّر «النسفي»[1] هذا الجزء من الآية: ﴿إن الله بث منهما﴾ أي فرّق، ونشر من آدم وحواء جنس الأنس وهم الذكور والإناث. ولقد عقّب «النيسابوري»[2] على تفسير هذا الجزء من الآية بقوله: «إنّ الله لم يقل الرجال والنساء معرّفين لئلا يلزم كونهما مبثوثين من نفسيهما، لأن هذا البث معناه محمول على الظاهر عند من يرى أن جميع الأشخاص البشرية، كانوا كالذرّ مجتمعين في صلب آدم. وأما عند من ينكر ذلك، فالمراد أنه بث منهما أولادهما، ومن أولادهما جمعا آخرين وهلّم جرّاً، فأضيف الكل إليهما على سبيل المجاز»[3]. وقد استأنس «النيسابوري» في هذا التفسير، بالآية القرآنية التي تفيد أن الله تعالى خلق من هذه النفس الواحدة زوجها، ومنهما بثّ الخالق سبحانه وتعالى الأبناء والأحفاد، الذكور منهم والإناث. ومن تزاوج بعضهم مع بعضهم الآخر، تكوّنت الأسر والعائلات. وبتكاثرهم تألفت الأمم، ونشأت الشعوب مع تنوّع في الألوان، واختلاف في الألسن واللغات إذ يقول سبحانه:

---

(١) الإمام عبد الله النسفي: مدارك التزيل ومحاسن التأويل ٢/ ٢٨٧.

(٢) (٣) النيسابوري: على هامش تفسير الطبري، ٤/ ١٧٨.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٢).

وقوله أيضاً:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾(٣).

كل هذه الآيات الكريمة تشير إلى خلق آدم وحواء وتأليف الأمم والشعوب على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، بعد أن بثّ الذكور والإناث منهما على مراحل وأطوار متعددة ومختلفة عن كيفية خلق آدم من سلالة من طين، وقد بيّن لنا الله سبحانه وتعالى هذه الكيفية في كتابه العزيز في الآيات التالية:

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

(١) القرآن الكريم: سورة النحل: ١٦، آية: ٧٢.

(٢) القرآن الكريم: سورة الحجرات: ٤٩، آية: ١٣.

(٣) القرآن الكريم: سورة الروم: ٣٠، آية: ٢٢.

مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ سورة الحج: ٢٢ ـ آية: ٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[1] سورة المؤمنون: ٢٣ ـ آية: ١٤.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ﴾ سورة غافر، ٤٠ ـ الآية ٦٧.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[2] سورة الإنسان، ٧٦ ـ الآية ٢.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[3] سورة الزمر، ٣٩ ـ الآية ٦.

وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى خلق ذرية آدم وحواء الذكور منهم والإناث من نطفة مختلطة من ماء الرجل

---

(١) قرار مكين: أي بطن الأم.

(٢) أمشاج: اخلاط ماء الرجل وماء المرأة.

(٣) خلقاً من بعد خلق: أي طوراً من بعد طور.

في ظلمات ثلاث: ظلمة المشيمة ثم الرحم ثم البطن.

والمرأة وذلك بعد أن تمرّ باطوار متعددة: أولها النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام عارية، ثم كسوتها باللحم، ثم إنشاؤه خلقاً آخر بشراً سوياً جنيناً مكتملاً ذي سمع ليسمع آيات الله، وذي بصر ليرى ما في الآفاق فيما بعد. وكل هذه التطورات تتم في ﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، هو بطن الأم حتى لا يتأثر تكون الجنين بالمؤثرات الخارجية. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾!!

كما أنّ هذه الآيات تقرّر الصلة الحيّة القائمة بين جنسَيْ آدم وحواء، هذه الصلة التي تترك أثرها واضحاً في هذا الامتداد الذُّرّي التناسلي الذي يخلفه الآباء والأمهات في الأبناء وأبناء الأبناء عن طريق التزواج والمصاهرة، حتى يتكوّن من هذه الكثرة المطردة مختلف الأمم والشعوب في الأسرة الإنسانية جمعاء وإذا ما كان هناك تنوّع في ألوان الصور من البياض والسمرة والحمرة، واختلاف في الألسن من عربية وأعجمية، فإن هذا الاختلاف، ليس من فعل النطفة، كما يقول «القرطبي»، ولا من فعل الأبوين، بل لا **بد من فاعل. وإن هذا الفاعل هو الله سبحانه وتعالى.** ويرى أن في فعله هذا لآيات للعالمين[1] وإن الله لم يميز

---

(١) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير سورة الروم، المجلد: ١٣ ـ ١٤، ج ١٤، آية: ٢٢، ص ١٨.

بين هؤلاء الناس جميعاً إلا بالتقوى، مصداقاً لقوله تعالى في نهاية الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

فيكون بذلك قد جعل جلّ شأنه التقوى أساس التفاضل بين البشر، قاضياً بذلك على أي تمييز ليس بين الرجال والنساء فحسب، بل بين جميع ابناء الأسرة البشرية الذين يميزون بين بعضهم البعض تمييزاً يقوم على أساس العرق أو الجنس واللون: حيث يشير سبحانه وتعالى بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[1].

وقد دأب رسول الله ﷺ على تكرار هذه المعاني، مؤكداً على وحدة الأصل والمنشأ والتكوين بين جميع أفراد العائلة الإنسانية الواحدة ذكوراً وإناثاً، ومنذ بدء الخليقة إلى أن تقوم الساعة. بقوله عليه الصلاة والسلام: «الجنس كله من تراب، والفرد، أيّما فرد، من «ماء مهين» مستوحياً قوله تعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾[2].

---

(١) القرآن الكريم: سورة الحجرات: ٤٩ ـ آية: ١١.

(٢) القرآن الكريم: سورة الطارق: ٨٦ ـ آية: ٥، ٦، ٧.

أو قوله ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى». وما زال هذا شأنه ﷺ، يؤكد على مبدأ وحدة الأصل والتكوين، وعلى مبدأ الإخاء والمساواة بين الذكور والإناث من ناحية، وبين عامة الناس عند مختلف الشعوب والأقوام من ناحية ثانية.

ويذكر في كل مرة عدم التمييز بين الرجال والنساء في الحقوق والواجبات ويوصي بالنساء خيراً قائلاً[1]: «أُوصيكم بالنساء خيراً، ما أَكرمهنّ إلاّ كريم، وما أَهانهنّ إلاّ لئيم». وكذلك قوله: «إنما النساء شقائق الرجال، لهن ما لهم، وعليهن ما عليهم». وما زال صلوات الله عليه يكرر هذه المعاني التي ترفع من شأن المرأة على نحو لم تعهده أبداً أية شريعة أو وصايا سابقة كما رأينا، حتى جاء في «حجة الوداع» حيث خطب أفضل الصلاة والسلام في الناس قائلاً:

«أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرَشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف،

(١) سيرة ابن هشام. الجزء الثاني ص: خطبة الوداع.

واستوصوا بالنساء خيراً. فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً. وإنكم إنما اخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلّوا أبداً، أمراً هيناً، كتاب الله وسنّة نبيّه».[1].

نخلص ممّا تقدم، إلى أنه ما أن اكتملت الدعوة الإسلامية، حتى تحررت المرأة نهائياً من تهمة «القصر الدائم» التي ألصقتها بها الحضارات القديمة. وتحررت من «وزر الخطيئة» كما تقول اليهودية والنصرانية، ولم تعد «الأنوثة» نقصاً أو «عيباً» أو «لعنة» أو «شؤماً» أو «مياهاً مؤلمة» أو «رجساً من عمل الشيطان».

وإنما غدت الأنوثة في عرف الإسلام أصالة في نظام الحياة كأصالة الذكورة، بل ربما كانت أشدَّ أصالة منها لأنها هي المستقر، وهي التربة الصالحة التي هيّأها الله تعالى لأن تكون مزرعة للنسل وامتداداً للحياة، فجعلها هي وحدها التي تحمل وهي التي تضع وتنجب وترضع، وقد أشار عز وجل إلى هذه العلاقة الجنسية المهيبة الجانب التي تربط بين الذكر والأنثى، وتشدهما إلى بعضهما البعض برباط أسماه ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[2] وقد جعله يقوم على

---

(١) سيرة ابن هشام، الجزء الثاني ص: ٣٧٨.

(٢) القرآن الكريم: سورة البقرة: ٢ ـ آية: ٢١.

أساس لطيف ومتين من المودة والرحمة. لقوله سبحانه وتعالى في غير موضع:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2].

﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[3].

هذه الآيات الكريمة تكشف عن مدى جاذبية الفطرة بين الجنسين لا لمجرد إشباع الغريزة الجنسية بين الجنسين، إنما لتنأى بها عن غلظ المعنى الحيواني لتتجه نحو هدف إنجاب الذرية الصالحة لعمارة الكون. فقد شبه كلاً من الزوجين باللباس الذي يستر ويقي، لأنّ كلاً منهما يستر الآخر ويحفظ عليه شرفه ويصون عرضه ويوفر له الراحة والصحة والسكينة. لذا يسرّ هذه العلاقة ومنحها شفافية ورفقاً بأن وطّدها بالمودة والرحمة، وسترها بهذا الدثار اللطيف المتين.

---

(١) القرآن الكريم. سورة الروم: ٣٠ ـ آية: ٢١.
(٢) القرآن الكريم سورة البقرة: ٢ ـ آية: ٢٢٣.
(٣) القرآن الكريم سورة البقرة: ـ آية: ١٨٧.

وتفيد الإشارة هنا إلى أن هذا التناسق بين الذكر والأنثى لا يؤدي بالضرورة إلى التماثل المطبق بينهما في كل شيء. كما أن المفارقة بينهما لا تمنع بالمطلق التكافؤ بينهما، لأنها قائمة أساساً على التمازج والمخالطة والملابسة التي توحي بها هذه الآيات. فالتعبير القرآني ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ﴾ يقصد به أن بعضكم الذكور من بعضكم الإناث فهنَّ زوجاتكم وأمهاتكم وبناتكم، كما أن بعضكم الإناث من بعضكم الذكور فهم أزواجكم وآباؤكم وأولادكم. فطينة «البعضين» إذن واحدة، هي طينة آدم عليه السلام التي راعت قانون الزوجية وقد خَلق الله منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. مصداقاً لقوله تعالى: كما ذكرنا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ﴾[1].

فهذه «البعضية» إذن تقتضي أن يكون كلٌّ من «البعضين» إنساناً كاملاً يتمتع بشخصية مستقلة عن الأخرى يتآلف وينسجم ويلبس بعضه الآخر ليؤدي دوره الأساسي في هذه الحياة.

وفي التعليق على هذه الآية الكريمة: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ

---

(١) القرآن الكريم سورة آل عمران: ٣ ـ آية: ١٩٥.

بَعۡضٍۚ﴾ نورد ما يقوله شيخ الجامع الأزهر، الإمام محمود شلتوت رحمه الله تعالى، يقول.

«كيف أنّ القرآن سما بالمرأة حتى جعلها بعضاً من الرجل، وكيف حدّ من طغيان الرجل، فجعله بعضاً من المرأة. وليس في الإمكان ما يؤدي به معنى المساواة أوضح ولا أسهل من هذه الكلمة التي تفيض بها طبيعة المرأة والرجل، والتي تتجلى في حياتهما المشتركة دون تفاضل وسلطان[1]. فلا تفرقة ناشئة إذن بين الذكور والإناث من حيث الجنس. فالكل سواء في الإنسانية، وكلهم سواء في الميزان طالما أن «بعضهم من بعض»».

واستناداً لهذه النظرة الفريدة في تاريخ المرأة القائمة على وحدة الأصل والمنشأ والتكوين، والتي تسير في تاريخ البشرية على أساس الإزدواج الذي لا تتم حياة إلاّ بوجود الذكر والأنثى، هبّت المرأة المسلمة بكل فخر واعتزاز، لتشارك في صنع هذا المجتمع الجديد الذي دعا إليه سيدنا محمد ﷺ بعد أن أفسح لها مكاناً مرموقاً في كافة المجالات الحياتية على أساس من الأخوة والمساواة في الحقوق والواجبات:

فبايعت الرسول ﷺ، كما بايعه الرجل وإن لم

---

(١) محمد شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة.

يصافحها باليد. وهاجرت الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى يثرب، كما هاجر الرجل، فراراً بعقيدة التوحيد، وخوفاً على نفسها من الافتنان والارتداد إلى عهد الشرك وعبادة الأصنام والطواغيت. كما أنها جاهدت داخل الجزيرة العربية وخارجها مؤازرة الرجل. ومارست كافة حقوقها الطبيعية والإنسانية التي منحها إياها الدين الإسلامي على أوسع نطاق: في المعاملات المالية والقانونية[١]، في الحقوق السياسية[٢] والإجتماعية والمدنية، في حق اختيار الزوج[٣]. وفي حق التعلم والتعليم[٤] وفي تحمل المسؤلية كافة داخل الأسرة وخارجها بعد أن غدت عنصراً فاعلاً ومنفعلاً في المجتمع الإسلامي الذي بالغ في إكرامها بنتاً وأختاً وفي احترامها زوجاً وأماً[٥] حتى انقلب حالها إلى أحسن حال وأصبح لها كيان يمثل بنظر الشريعة الإسلامية نصف المجتمع الشريف الطاهر، كما يمثل الرجل تماماً النصف الآخر. وحتى كاد أن يرسخ في الأذهان أنها والرجل شقيقان يؤديان معاً رسالة الحياة بتكافىء وتضامن وتساوٍ إذ لا

---

(١) راجع كتابنا: حقوق المرأة بين الشريعة الإسلامية والشرعة العالمية لحقوق الإنسان من صفحة ١٣١ ـ ١٥٣.

(٢) نفس المرجع السابق. من صحفة: ١٥٣ ـ ١٥٧.

(٣) نفس المرجع السابق من صفحة: ٧٩ ـ ٨٤.

(٤) نفس المرجع السابق. من صفحة: ١٨٣ ـ ٢١٦.

(٥) راجع كتابنا: واقع المرأة الحضاري في ظل الإسلام.

حياة بلا نساء كما أن لا حياة بلا رجال. وإن الحياة ستتوقف بتوقف أحدهما لأنها لو اعتمدت على جنس واحد مهما كان قوياً بنفسه، لقضي على الإنسانية منذ ملايين السنين!

وقد اكسبها هذا الإيمان شعوراً بالاطمئنان والعزة والكرامة بشخصيتها الإنسانية لأنها غدت في نظر الدين الإسلامي إنساناً قبل أن تكون انثى بينما كانت في نظر التقاليد السابقة للإسلام «مجرد انثى ولم تكن إنساناً». إن المرأة في نصوص الشرع الإسلامي سيدة حرة ذات شخصية وإرادة مستقلة، بعد أن رزحت تحت أعباء ثقيلة وهي أسيرة مستعبدة تابعة للرجل بلا شخصية ولا إرادة ولا كرامة. مولدها فرحة كبرى وبشارة عظيمة لمن يفهم الدين الحنيف فهم الحياة. وخاصة أن الحديث الشريف يبشر بسعة في الرزق من الله تعالى بسببها، بينما كان ميلادها نذير شؤم على الحياة والأحياء في السابق عند أصحاب التقاليد.... هي في الدين الحنيف أمٌ تُكرَّم، وبنت ترحم، وزوج تصان وتوقر... وهي في التقاليد القديمة والغربية الحديثة آلة للإنجاب أو «فبركة» للنسل تلد ثم تقف. وسلعة من أرخص السلع «تفبرك» ثم تسترق، وأداة للمتعة وللفراش تشترى وتستهلك ثم تهان وتقهر!!![1].

---

(١) صبحي الصالح، الإسلام ومستقبل الحضارة، ص: ١٥٦.

أجل هكذا كانت المرأة في نظر التقاليد الموروثة، وفي نظر الحضارات السابقة للإسلام مخلوقاً مقهوراً مغلوباً على أمره، يُشك في جنسه، ويحرم من الاعتراف بإنسانيته!

وهكذا أصبحت المرأة في ظل الإسلام إنساناً عزيزاً حراً مستقل الشخصية كامل الأهلية، موفور الكرامة، عزيز الجانب، مكلفاً مسوؤلاً، فاعلاً ومنفعلاً في الحياة وفي تحمل المسؤولية كافة حتى استطاعت بفضل هذه الممارسة أن تتبوأ مركزاً حضارياً متطوراً يتلخص بالواقعية المثالية في حرية الرأي، وفي توزيع العدالة والمساواة بين الذكور والإناث. هذه العدالة التي أُنزلت في القرآن الكريم من لدن عزيز حكيم، وراعت بكل حكمة الاختلافات الحاصلة بين كل من الرجل والمرأة، والتي أدت بالضرورة إلى اختلاف في بعض التكاليف والمسوؤليات الدينية والحياتية فيما بينهما، وإلا لما كان من معنى لأن يخلق الله سبحانه وتعالى من النفس الواحدة زوجها، كما ذكرنا سابقاً في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾.

فالرجل والمرأة إذن في نظر العقيدة الإسلامية، هما شريكا حياة ومصير. وهما يؤلفان شطريْ الإنسانية وقد خلقهما عز وجل من نفس واحدة وهذا وجه

تشابههما. . . . وإن الرجل غير المرأة إذ أعدّ الله كلاً منهما لمهام معيّنة وهذا وجه اختلافهما. . . وإن المرأة والرجل يكمل بعضهما بعضاً، وهذا وجه ائتلافهما وهذا هو بالذات الوجه الحضاري المميز الذي تمتعت به المرأة المسلمة منذ أربعة عشر قرناً ونيّف في جميع المجالات الحيوية والتي ما زالت المرأة العالمية ـ غير المسلمة ـ تسعى جاهدة حتى اليوم إلى إكمال رسمه وبلوغ اهدافه لتنعم بخصائصه في مختلف بلدان العالم. لأن مسيرة القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة في العالم غير الإسلامي، ما زالت تتعثر في مسيرتها على الرغم من الجهود المبذولة في أروقة الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز الممارسة ضد المرأة وفي مختلف انحاء العالم. مما حدا بأجهزة الدراسات المحلية والإقليمية والدولية، المعنية بدراسة تحسين أوضاع المرأة، لأن تضع خطة عمل عالمية استشرافية ثانية كما سموها بعد فشل الخطة العالمية الأولى في تنفيذ جميع أهدافها: «حرية، مساواة، تنميه»، وذلك للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، لكي تضمن العدالة والمساواة بين الرجال والنساء في ميادين الحياة، ولكل نساء العالم بلا استثناء مع حلول عام ٢٠٠٠ المرتقب!!.

●

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتاب المقدس

ثالثاً: دائرة المعارف الإسلامية

رابعاً: المصادر الأجنبية

* * *

١ ـ القرآن الكريم والمراجع العربية:

- القرآن الكريم.
- ابن الجوزي عبد الرحمن أبو الفرج (٥٩٧هـ)، دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه في الرد على المجسمة والمشبهة، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- إقبال محمد: تاريخ التفكير الديني في الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥م.
- بوكاي موريس: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، ترجمة نخبة من العلماء، دار الكندي، بيروت ١٩٨٧م.
- الخطيب عبد الكريم مصطفى: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، مطبعة السنة النبوية، القاهرة ١٩٦٤م.
- ديورانت دول: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦١م.

- رضا محمد رشيد: التفسير المختصر للقرآن المجيد، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤م.
- شلتوت محمود: الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، بيروت.
- الصالح صبحي: الإسلام ومستقبل الحضارة، دار الشورى، بيروت ١٩٨٢م.
- الطبري: جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، وعلى هامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري.
- الطباطبائي محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٩٨٤م.
- الطويل توفيق: قصة النزاع بين الدين والفلسفة، مكتبة الآداب، القاهرة.
- عبد الباقي محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
- عبود عبد الغني: الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة، دار الفكر العربي ١٩٧٩م.
- العقاد عباس محمود: الفلسفة القرآنية.
- القرطبي أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن.
- لابوم جول: تفصيل آيات القرآن الكريم، وبهامشه: المستدرك لأدوار مونيه، نقله إلى العربية محمود فؤاد عبد الباقي.
- لوبون غوستاف: حضارة العرب، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٤٥م.
- وثيقة القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة تاريخ ١٩/ ١٢/ ١٩٧٩م، منشورات الأمم المتحدة، رقم الوثيقة A. Conf .116/P.C/19

٢ ـ الكتاب المقدس:
ـ التوراة والأناجيل الأربعة، ترجم من اللغات الأصلية، العبرانية والكلدانية واليونانية، (جمعية التوراة الأمريكية، جمعية التوراة البريطانية والأجنبية)، طبع في القاهرة ١٩٣٨م.
٣ ـ دوائر المعارف بالعربية:
١ ـ دائرة المعارف الإسلامية: نقلها إلى العربية: إبراهيم زكي . خورشيد عبد الحميد مونس . محمد ثابت الفندي . أحمد الشنقاري.
٢ ـ دائرة المعارف: بإشراف فؤاد أفرام البستاني، بيروت . لبنان.
٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي، القاهرة.
٤ ـ بهجة المعرفة: موسوعة علمية مصورة، المجموعة الثانية: «هذا الإنسان»، دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع، إيطاليا عام ١٩٨٠م.
٤ ـ المصادر الأجنبية:
- Encyclopédia Britannica.
- Encyclopédie Française.
- New Catholic Encyclopédia.
- Mem Avril de Sainte Croix: le féminisme.
- Bensadon, Ney: les droits de la femme des origines jusqu'à nos jours, Press Universitaire de France, 1980.
- Clark Howell: Early Man: Time life Book, New York 1988.
- Comrack, Marguerit: The Hindow women, Columbia New York. Teachers' College, Columbia University 1953.
- Glatz. V.: la Solidarité de la femme en Grèce.
- Ruth Moore: Evolution. Time life Book, New York 1968.

Westermark: History of Human Mariage London 1921.
Zahner. R.C: The dawn & the twilight of zarastérian-ism. New York. G.P. Put nam's Sons, 1961.
Glifton. E.J. Mc laughlin: Nouveau Dictionnaire Anglais - Français et Français - Anglais.



فهرس الكتاب

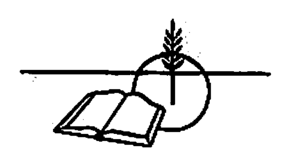
الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تصدير الكتاب	٦
مقدمة بقلم الدكتور أحمد بو حاقة	٧
مقدمة البحث	١٤
١ ـ الفصل الأول	٢٣
وضع المرأة في الحضارة الهندية	٢٥
مركز المرأة في الحضارة الفارسية	٢٧
المرأة الصينية	٢٩
المرأة في بلاد ما بين النهرين	٣٠
المرأة في الحضارة المصرية القديمة	٣١
المرأة في الحضارة اليونانية	٣٣
المرأة في الحضارة الرومانية	٣٧
المرأة العربية في العصر الجاهلي	٣٨
٢ ـ الفصل الثاني	٤١
وضع المرأة في اليهودية	٤٣
قصة آدم وحواء في الخطيئة الأولى كما وردت في التكوين	٤٨
نزول حكم الله بحق آدم وحواء والجنة	٥١

وضع المرأة في المسيحية ٥٤
٣ ـ الفصل الثالث ٧٥
المرأة في التصور الإسلامي ٧٧
المرأة والخطيئة ٧٨
ما جاء في سورة البقرة ٧٩
ما جاء في سورة الأعراف ٨١
ما جاء في سورة طه ٨٢
الجديد في البيان القرآني ٩٠
وزر مأكل آدم من الشجرة ٩٦
الأكل من هذه الشجرة إثم وليس خطيئة ٩٩
المعصية فردية ذاتية ١٠٣
التوبة من الذنب ١٠٦
شمولية التجربة ١٠٦
عوامل الإثم المقترف النفسية ١٠٧
براءة الإنسان المسلم من كل وزر مقترف ١٠٨
حواء وجنسها في التصور الإسلامي ١١٠
صورة آدم في الميزان ١١٣
أصل الحياة ١١٨
خلق الزوج في هذه النفس الواحدة ١٢٧
أهمية قرار الإسلام في شأن التسوية بين المرأة والرجل ١٣٦
وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ١٤٥
المصادر والمراجع ١٥٩
فهرس الكتاب ١٦٣

للمؤلفة

- حقوق المرأة بين الشرع الإسلامي
  والشرعة العالمية لحقوق الإنسان.
- حواء والخطيئة.
- عليّة بنت المهدي مرآة العصر العباسي الأول
  شاعرة - ومغنّية - وملحّنة

تطلب من مكتبة المعارف ص ب ١١/١٧٦١ بيروت - لبنان



د . فتنت مسيكه برّ

حُقُوقُ المَرْأَةِ

بَينَ الشَرعِ الإسْلاميّ وَالشرعَة العَالميّة لِحقُوق الإنسَان

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر